



المُعْتَمِدُ بْنُ عَبْدِكَ

الملكُ الجوادُ الشجاعُ الشاعرُ المرزأ

تأليف
الدكتور عبد الوهاب عزام

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

المُعْتَدِلُ بْنُ عَبْدِكَ

الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزأ

تأليف
الدكتور عبد الوهاب عزام

الناشرة
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1431هـ-2010
حقوق الطبع محفوظة للنشر
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد - القاهرة
25922620-25938411 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

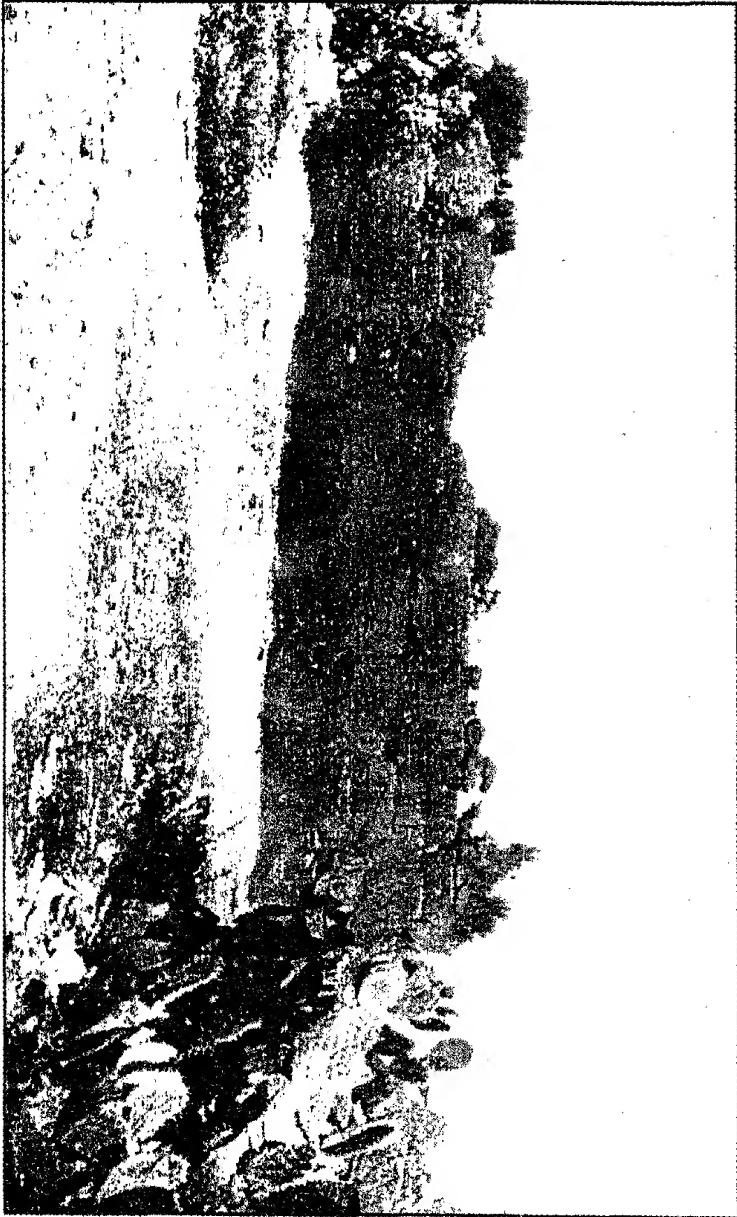
بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لادار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

عزام ، عبد الوهاب ، 1894-1959
المعتمد بن زيد : الملك الشجاع الشاعر المرزا / عبد الوهاب عزام
القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2010،
138 ص ، 24 سم
تتمك : 2-467-341-977-978
1- الفتوحات الاسلامية
2- الاندلس - تاريخ
ا- العنوان
المعتمد بن عبد ، محمد بن عبد ، 1014-1095

ديوى: 953,2

رقم الابداع: 2573

بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ



الساحة التي بها قبر المعتمد بن عباد

بسم الله الرحمن الرحيم

١

جاز المسلمون بحر الزقاق إلى جزيرة الأندلس سنة اثنتين وتسعين من الهجرة في خلافة الوليد بن عبد الملك .

وساروا فاتحين حتى استولوا على مدينة طليطة في السنة التالية . وهي مدينة حصينة صعبة المنال يسّر لهم الاستيلاء عليها فتح ما وراءها .

وامتد بهم الفتح حتى بلغوا جبال البرتات (جبال البرانس) الجال الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا . اجتازوها في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ هـ - ١٠١ هـ) وفتحوا مدينة أربونة (ناربون) وجعلوها مبدأ غزواتهم في فرنسا . ثم فتحوا طلاشة (طولوز) سنة اثنتي ومائتين . وامتد بهم الفتح إلى سنة سبع ومائة ففتحوا جنوبى فرنسا .

وفى رمضان سنة أربع عشرة ومائة ، بين مدينة تور ومدينة بواتي ، كانت موقعة بلاط الشهداء . وكان قائد المسلمين عبد الرحمن الغافقى وقائد المسيحيين شارل مارتل . واضطر المسلمون إلى التراجع إذ رأوا أنهم لا قبل لهم بهذه الجحافل الحاشدة في تلك الأصقاع النائية . وهذا كان منتهى فتح المسلمين في فرنسا ولكنهم احتفظوا بمدينة أربونة إلى سنة اثنتين وأربعين ومائة حين استولى عليها ملك فرنسا في عهد الدولة الأموية الأندلسية .

زالت الدولة الأموية في المشرق سنة اثنتين وثلاثين ومائة من الهجرة وقام بأمر المسلمين بنو العباس، فأتبعوا بنى أمية تقتيلاً وتشريداً. وكان فيمن فرّ من شباب بنى أمية عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الملقب صقر قريش. لقبه أبو جعفر المنصور إعجاباً بهمته وعزيمته وسياسته.

ضرب عبد الرحمن في شمال أفريقية حتى المغرب الأقصى ثم اجتاز البحر إلى الأندلس فبايعه الناس أميراً عليهم فجمع أمرهم ورد عنهم جيوش العباسيين حينما حاولوا أن يمدوا سلطانهم على الأندلس كما امتد على سائر البلاد الإسلامية.

ودامت دولة بنى أمية زهاء ثلاثة قرون. قويت الدولة وتمكنت وامتد سلطانها في البر والبحر. وتوالى على تدبيرها عشرة أمراء من عبد الرحمن الداخل إلى هشام حفيد عبد الرحمن الناصر في إحدى وستين ومائتي سنة. ثم اضطرب أمر الدولة فتوالى عليها أربعة عشر حاكماً في ثلاث وعشرين سنة.

وبلغت الدولة أوج مجدها وعزها. وبلغت الحضارة أزهر أعوامها وأنضر أيامها في ولاية عبد الرحمن الناصر الذي دبر الملك من سنة ٣٠٠ إلى ٣٥٠ هـ فرد العداء في الشمال خائنين وأرهب الظامعين في المغرب. فاستتب له الملك وتمكن سلطانه، وعمم المن دولته؛ وعظمت هيئته، وبعد صيته، وازدهرت المدينة واستبحر العمران. فبنى الناصر مدينة الزهراء في ضاحي قرطبة آية في العمران وبرهاناً على غنى الدولة وعظمتها وبلوغ الصناعات فيها غايتها.

وخلف عبد الرحمن الناصر ابنه الحكم المستنصر ستة عشر عاماً وأمور الدولة متسقة وأمنها مستتب. ومات الحكم فخلفه ابنه هشام، وهو صبي. فتطلع إلى مقاليد الأمور رجل من عباقرّة التاريخ أهله للسلطان طموحه وحزمه وشجاعته وخلقه ودينه: محمد بن أبي عامر. تسلط ابن أبي عامر على أمور الدولة كلها وأحكم تدبيرها ومكّن هيبتها وأخاف أعداءها، وبلغت مغازيه صوب الشمال أعد ما بلغت في عصر الدولة الأموية. غزا أكثر من خمسين غزوة لم يهزم في واحدة حتى مات غازياً في الشمال ونقل إلى مدينة سالم فدفن بها سنة ٣٩٢هـ.

ثبت ابن أبي عامر أركان الدولة ولكنه أضعف البيت الأموي بما استبد دونهم بالأمر وأورث السلطان بينه. ولم يُقر الناس لبني عامر بما أقروا لبني أمية، فزالت هيبة الملك وتنازعه بنو أمية وبنو حمود العلويون حتى زالت الدولة كلها سنة ٤٢٢هـ.

٣

ملوك الطوائف

تقسم بلاد الأندلس، بعد زوال الدولة الأموية، أمراء تنازعوا رقعتها وظفر كل واحد بما قدر عليه. فقامت إمارات تولاهها أمراء سموها ملوك الطوائف واستمر عصرهم زهاء خمسين عاماً.

وكان للطوائف أربعة عشرة دولة في أرجاء البلاد لا يتسع المجال لذكرها ولا يحتاج هذا المقال إلى تعدادها. فإنما قصدنا إلى بني عباد من بينهم.

بنو عباد

كان أعظم ملوك الطوائف وأفسحهم . ملكاً وأبعدهم صيتاً وأكثرهم ذكراً فى التاريخ والأدب بنى عباد ملوك إشبيلية وقرطبة .

قامت دولتهم فى إشبيلية سنة ٤١٤هـ ثم اتسعت فاستولت على ملك بنى جمود فى الجزيرة سنة ٤٥٠هـ وعلى ملك بنى جهور فى قرطبة سنة ٤٦١هـ . وامتدت حتى شملت مرسية فى الشرق .

ودامت دولة بنى عباد سبعين سنة وتولاها منهم ثلاثة : أبو القاسم محمد وابنه أبو عمرو عباد الملقب بالمعتضد، وابن هذا أبو القاسم محمد بن عباد الملقب بالمعتمد .

استمر ملك الأول تسع عشرة سنة (٤١٤ - ٤٣٣هـ) وملك الثانى ثمانيا وعشرين (٤٣٣ - ٤٦١هـ) واستمر ملك المعتمد ثلاثاً وعشرين (٤٦١ - ٤٨٤هـ) .

وكان للمعتمد فى الجهاد بلاء عظيم، وفى الجود صيت ذائع، وفى الأدب منزلة عالية، ومن غير الأيام ومصائب الحداث نصيب موفور . وقصته، كما تأتى، كانها فى المأسى خيال شاعر لا حقيقة واقع، واقتنان كاتب لا حادثات تاريخ .

يتنمى بنو عباد إلى الخنم ثم إلى مناذرة الحيرة . تردد ذكر هذا النسب فى أقوالهم وأقوال من أرخوا لهم أو مدحوهم .

من بنى المنذرين وهو انتساب زاد فى فخرهم بنو عباد
فتية لم تلد سواها المعالى والمعالى قليلة الأولاد

وفد جدهم نعيم وابنه عطف من العرش إلى الأندلس . واستوطننا إقليم
إشبيلية . ويعلم أن جدهم إسماعيل بن عباد، وهو جد المعتضد، اتصل
بالمنصور ابن أبى عامر فولاه القضاء فلبث قاضياً إلى أن اضمحلت الدولة
الأموية فى أوائل القرن الرابع الهجرى . ثم خلفه فى القضاء والرياسة ابنه
محمد بن إسماعيل القاضى جد المعتمد . عظمت مكانته وهو قاض . وكان
يحمى بن على بن حمود الحسنى الملقب بالمستعلى ، تغلب على قرطبة أيام
اضطراب الدولة الأموية فذهب إلى إشبيلية محاصراً . فاجتمع أهلها وبايعوا
القاضى على الإمارة . وقد مكّن للملكه برجل ادعى انه هشام المؤيد بن الحكم
المستنصر بن عبد الرحمن الناصر - وكانت أخباره انقطعت منذ نيف وعشرين
سنة ثم قيل إنه حى فى قلعة من قلاع الأندلس - فدعاه القاضى وجعل له
اسم الملك ووطد به سلطانه، وثبت غمارته حتى توفى الرجل المدعو هشاماً
فاستبد القاضى محمد بن إسماعيل بالملك . وكان أديباً شاعراً جواداً حسن
السياسة .



وأبدأ الكلام فى بنى عباد يحمل للفتح بن خاقان صاحب مطمح النفس
وقلائد العقيان . وكلامه كلام كاتب متنوق لا مؤرخ محقق . والقصد فى هذا
المقال ذكر المعتمد بن عباد فى حالى نعيمه وبؤسه، وإثبات طرف من اخبار
بنى عباد فى معرض الأدب وفى زينة الشعر والنثر فى غير إخلال بالتاريخ ولا
تحريف للحقائق، ليجمع القارئ بين حوادث التاريخ الأندلسى، وصور من
أدب الأندلسيين فى ذلك العصر .

قال الفتح بن خاقان فى كتابه مطمح النفس وهو يذكر الوزير أبا القاسم محمد بن عباد وهو أول من ملك منهم:

«هذه بقية متماها فى لحم^(١) ومرتماها إلى مفخر ضخم. وجدهم المنذر ابن ماء السماء ومطلعهم فى جو تلك السماء.

وبنو عباد ملوك أنس بهم الدهر، وتنفس منهم عن اعقب الزهر. وعمروا ربّع الملك وأمروا بالحياة والهلك.

ومعتضدهم أحد من أقام وأقعد، وتبوا كاهل الإرهاب واقتعد. وافترش من عريسته، وافترس من مكاييد فريسته. وزاحم بعود، وهد كل طود. وأحمل كل ذى زى وشارة، وقتل بوحي وإشارة.

ومعتمداهم كان أجود الملاك وأحد نيرات تلك الأفلاك».

إلى أن يقول:

«والقاضى أبو القاسم هذا جدّهم، وبه سفر مجاهم، وهو الذى اقتنص لهم الملك النافر، واختصهم منه بالخط الوافر. فإنه أخذ الرماية من أيدي جبابر وأضحى^(٢) من ظلالها أعيان اكابر... وفاز من الملك بأوفر حصة، وغدت سمته به صفة مختصة، فلم يمح رسم القضاء، ولم يتسب بسمه الملك مع ذلك النفوذ والمضاء. وما زال يحمى حوزته، ويحلو غرته حتى حوته الرجام، وخلت منه تلك الآجام.

وانتقل الملك إلى ابنه المعتضد، وحل منه فى روض نُمق له ونُضد... وتسمى بالمعتضد بالله، وارتمى إلى أبعد غايات الجود بما أناله وأولاه، لولا

(١) يتسب بنو عباد إلى قبيلة لحم ومنها كان أمراء الحيرة المسمون المناذرة.

(٢) أضحى: سيرهم ضاحك. أن: بارزين للشمس غير مظللين.

بطش فى اقتضاء النفوس كدر ذلك المنهل ، وعكر أثناء ذلك صفو العل والنهل . وما زال للأرواح قابضاً ، وللوثوب عليها رابضاً ، يخطف أعداءه اختطاف الطائر من الوكر ، ويتنصف منهم بالدهاء والمكر ، إلى أن أفضى الملك إلى ابنه المعتضد فاكتحل منه طرفه الرمد . وأحمد مجده ، وتقلد منه أى بأس ونجدة ، ونال به الحق مناه ، وجدد سنائه . وأقام فى الملك ثلاثاً وعشرين سنة لم تُعدم له فيها حسنة ، ولا سيرة مستحسنة . إلى أن غلب على سلطانه ، وذهب به من أوطانه . فنقل إلى حيث اعتقل . وأقام كذلك إلى أن مات ، ووارته تربة أغمات .

هذه كلمات الفتح . وأثبت هنا كذلك قول ابن اللبانة الشاعر - وهو الشاعر الوفى ، مدح المعتمد أميراً وأشاد به وواساه أسيراً - وسيأتى طرف من شعره فى المعتمد .

قال فى بنى عباد :

« بماذا أصفهم واحليهم ، وأى منقبة من الجلالة أوليهم - فهم القوم تجل مناقبهم عن العد والإحصاء ، ولا يُتعرض لها بالاستيفاء والاستقصاء . ملوك بهم زينت الدنيا وتحلّت ، وترقت حيث شاءت وحلّت . إن ذكرت الحروب فعليهم يوقف منها على الخبر اليقين ، أو عدّت المآثر فهم فى ذلك فى درجة السابقين . أصبح الملك بهم مشرق القسام ، والأيام ذات بهجة وابتسام . حتى أناخ بهم الحمام ، وعطل من محاسنهم الوراء والأمام . فنقل إلى العدم وجودهم ، ولم يرع بأسهم وجودهم . وكل ملك آدمى فمفقود ، وما نؤخر إلا لأجل معدود .

فأول ناشئة ملكهم ومحصل الأمر تحت ملكهم، عظيمهم الأكبر،
وسابقة شرفهم الأجل الأشهر، وزينهم الذى يعد فى الفضائل بالوسطى
والخنصر، محمد بن عباد ويكنى أبا القاسم، ابن إسماعيل».

وقال ابن اللبانة يصف المعتضد خاصة. وهو ثانى أمرائهم:

«المعتضد أبو عمرو عباد رحمه الله تعالى. لم تخل أيامه فى أعدائه من
تقييد قدم، ولا عطل سيفه من قبض روح وسفك دم؛ حتى لقد كانت فى
باب داره حديقة لا تثمر إلا رءوساً، ولا تنبت إلا رئيساً ومرءوساً^(١). فكان
نظره إليها شهى مقترحاته، وفى التلفت إليها استعمل جل بكرة وروحاته.
فبكى وأرق، وشتت وفرق. ولقد حكى عنه من أوصاف التجبر ما ينبغى أن
تصان عنه الأسماع، ولا يتعرض له بتصريح ولا إلماع».

ويقول المراكشى: وكان قد اتخذ خشباً فى حديقة قصره جليلها برءوس
الملوك والرؤساء عوضاً عن الأشجار التى تكون فى القصور. وكان يقول فى
مثل هذا البستان فليتزره. وجملة أمر هذا الرجل أنه كان أوحده عصره شهامة
وضرامة وشجاعة قلب، وحدة نفس. كانوا يشبهونه بأبى جعفر المنصور من
ملوك بنى العباس. وكان قد استوى فى فخامته ومهابته القريب والبعيد
لاسيما منذ قتل ابنه وأكبر أولاده المرشح لولاية عهده».

وفى كلام المراكشى تفسير قول الفتح: كانت فى باب داره حديقة لا
تثمر إلا رءوساً.

وقال ابن بسام فى الذخيرة:

«وكان قد أوتى أيضاً من جمال الصورة وتمام الخلقة، وفخامة الهيئة

(١) منقول عن ابن خلكان، ترجمة المعتمد بن عباد.

وسبابة البنان، وثقوب الذهن، وحضور الخاطر، وصدق الحدس ما فاق على نظرائه.

ونظر مع ذلك فى الأدب، قبل ميل الهوى به إلى طلب السلطان، أدنى نظر، بأزكى طبع، حصل منة لثقوب ذهنه على قطعة وافرة علقها من غير تعمد لها، ولا إمعان النظر فى غمارها، ولا إكثار من مطالعتها، ولا منافسة فى اقتناء صحائفها.

أعطته سجيته على ذلك ما شاء من تحبير الكلام وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة ظاهرة فى معان أمدته فيها الطبيعة، وبلغ فيها الإرادة، واكتسبها الأدباء للبراعة. جمع هذه الخلال الظاهرة إلى جود كف بارى السحاب بها.

وتوفى المعتضد سنة ٤٣٣هـ بعد أن وسع ملكه، ومكّن سلطانه، وأرهب أعداءه، وخلد فى الأدب ذكره بلسانه ولسان شعرائه.

وأما المعتمد فالواصفوه كثيرون. وقد افتن الشعراء فى مناقبه ومآثره، وأولع الكتاب بإخباره وآثاره.

يقول ابن اللبانة^(١):

«ملك مجيد، وأديب على الحقيقة مُجيد. وهمام تحلى به للملك لبّة وللنظم جيد. أفتى الطغاة بسيفه وآد؛ وأنسى بسيفه ذكر الحارث بن عباد. فأطلع أيامه فى الزمان حجولا وغررا، ونظم معاليه فى أجيادها. جواهر ودررا. وشيد فى كل معدّوة فناءه، وعمر بكل نادرة مستغربة وبادرة مستطرفة أوقاته وآناءه. فنفتت به للمحامد سوق، وبسقت ثمرات إحسانه أىّ سوق. منع وقرى، وراش وبرى، ووصل وفرى.

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٣٧٦.

وكان له من أبنائه عدة أقمار نظمهم نظم السلك، وزين بهم سماء ذلك الملك. فكانوا معاقل بلاده وحماة طارفه وتلاده. إلى أن استدار الزمان كهيئته، وأخذ البؤس في فيئته. وأثمر الخلاف وظهر، وسلّ الشتات سيفه وشهر. والمعتمد رحمه الله تعالى يطلب نفسه أثناء ذلك بالثبات بين تلك الثبات، والمقام في ذلك المقام، إلى أن بدل القطب بالواقع، واتسع الحرق على الراقع.

فاستعصد بابن تاشفين فورد عليه كتابه يشعر بالوفاء، فثاب إليه فكر خاطره وفاء. وثبت خلال تلك المدة للتزوال، ودعا من رام حربه نزال. إلى أن أصبح والحروب قد نهته، والأيام تسترجع منه ما وهته. فثلّ ذلك العرش، واعتدت الليالي حين أمنت من الأرش. فنقل من صهوات الخيول إلى بطون الأجفان^(١). وهذه الدنيا جميع ما لديها زائل، وكل من عليها فان. فما أغنت تلك المملكة وما دفعت، وليتها ما ضرت إذ لم تكن نفعت. وكل يلقي معجله وموجله، ويبلغ الكتاب أجله.

ونقل المقرئ قول علي بن القطاع في كتابه «لمح الملح» عن المعتمد بن

عباد:

«أندى ملوك الأندلس راحة، وأرحبهم ساحة، وأعظمهم سماء، وأرفعهم عماداً. ولذلك كانت حضرته ملقى الرحال، وموسم الشعراء، وقبله الآمال، ومآلف الفضلاء؛ حتى إنه لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه وتشتمل عليه حاشيتا جنباه».

(١) نوع من السفن.

وفى نفح الطيب:

«وقال الفقيه القاضي أبو بكر بن خميس رحمه الله تعالى حين ذكر

تاريخ بنى عباد:

وقد ذكر الناس للمعتمد من أوصافه ما لا يبلغ مع كثرته إلى إنصافه.
وأنا الآن أذكر نبذاً من أخباره، وأردفها بما وقفت عليه من منظومات أشعاره.
فإنه رحمه الله تعالى جم الأدب رائعه، عالى النظم فائقه»^(١).

ويقول المراكشى فى كتاب المعجب: «وكان المعتمد هذا يشبه بهارون
الواثق بالله من ملوك بنى العباس، ذكاء نفس وغزارة أدب. وكان شعره كأنه
الحلل المنشرة. واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله
من ملوك الأندلس. وكان مقتصرًا من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به
وينضم إليه.

وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتية ما لا يحصى، كالشجاعة والسخاء
والحياء والنزاهة، إلى ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة. وفى الجملة فلا أعلم
خصلة تحمد فى رجل إلا وقد وهبه الله منها أوفر قسم، وضرب له فيها
بأوفى سهم. وإذا عدت حسنات الأندلس من لدن فتحها إلى هذا الوقت
فالمعتمد هذا أحدها يل أكبرها».

هذا كلام مؤلف من المغرب عاش فى القرن السابع، بعد المعتمد بقرنين
لا يمدح رغبة ولا رهبة. ولست أوافقه فى كل ما قال ولكنى أنقل قوله وقول
غيره إسهاداً على ما اعتقده أدباء الأندلس والمغرب وشعراؤها ومؤرخوها فى
المعتمد بن عباد، وما كان لسيرته من الأثر فى نفوس أهل عصره والعصور
التي تلتها.

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٣٧٧.

وقال مؤلف نفح الطيب بعد نقل طرف من أخبار المعتمد:

«وأخبار المعتمد بن عباد، وما رآه من الملك والعز في كل حاضر وباد، وما قاساه في الأسر، من الضيق والعسر وسوء العيش، أمر عجيب يتعظ به العاقل الأريب. وأما ما مدحته به الشعراء وأجوبته لهم في حاله يسره وعسره، ومملكه وأسره، وطيه ونشره، وتجهمه وبشره، فهو كثير، وفي كتب التاريخ منه نظم ونثر. وقد قدمنا منه في هذا الكتاب ما يبعث الاعتبار ويشير»^(١).

وقال ابن بسام في الذخيرة:

«كان للمعتمد بن عباد شعر كما انشق الكمّام عن الزهر، لو صار مثل من جعل الشعر صناعة، واتخذ به بضاعة، لكان رائعا معجبا ونادرا مستغربا. . . والعجيب من المعتمد انه مرى سحابه في كلتا حالتيه فصاب، ودعا خاطره فأجاب. ولا تراجع له طبع، في الملك ولا بعد الخلع. بل يومه في هذا الشأن دهر، وحسته في هذا الديوان عشر».

وقال الفتح بن خاقان في قلائد العقيان^(٢):

«ملك قمع العدا، وجمع الباس والندی، وطلع على الدنيا بدر هدى. لم تتعطل يوما كفه ولا بنانه، آوانه يراعه وآوانه سنانه. وكانت أيامه مواسم، وثغور برّة بواسم، ولياليه كلها دررا وللزمان أحجالا وغررا. لم يغفلها من سمات عوارف، ولم يضحها من ظل إيناس وارف. ولا عطّلها من مآثره بقى أثرها باديا، ولقى معتفيه منها إلى الفضل هاديا. وكانت حضرته مطمحا

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ١٠٥.

(٢) القلائد: ترجمة المعتمد بن عباد.

للههم، ومسرحًا لآمال الأمم، وموقفًا لكل كميّ، ومقدفًا لذى انف حميّ.
 لم تخل من وفد، ولم يصحّ جوّها من إنسجام رقد. فاجتمع تحت لوائه من
 جماهير الكمأة، ومشاهير الحماة، إعداد يغص بهم الفضاء، وأنجاد يزهى بهم
 النفوذ والمضاء. وطلع فى سمائه كل نجم متقد، وكل ذى فهم متقد.
 فأصبحت حضرته ميدانًا لرهان الأذهان، وغاية لرمى هدف البيان، ومضمارًا
 لإحراز خصل، فى كل معنى وفصل. فلم يرسم فى زمانه إلا بطل نجد،
 ولم يتسق فى نظامه إلا ذكاء ومجد. فأصبح عصره أجمل عصر، وغدا
 عصره أكمل مصر. تسفح فيه ديم الكرم، ويفصح فيه لسانا سيف وقلم،
 ويفضح الرضى فى وصفه أيام ذى سلم^(١). وكان قومه وبنوه لتلك الحلبة
 زينا، ولتلك الجملة عينا. إن ركبوا خلعت الأرض فلكًا يحمل نجومًا، وإن
 وهبوا رأيت الغمام سجومًا. وإن أقدموا أحجم عنترة العيسى، وإن فخرُوا
 أقصر عرابة الوسى. ثم انحرفت الأيام فألوت بإشراقه، وأذوت يانع إبراقه.
 فلم يدفع الريح ولا الحسام، ولم تنفع تلك المنز الجسام، فتُمَلِّك بعد الملك،
 وحط من فلكه إلى الفلك».

(١) يعنى الشريف الرضى فى غزله.

المعتمد والأدب

نشأت دول الطوائف الأندلسية فى القرن الخمس الهجرى . وهو عصر زهر بالعلوم والآداب فى الأندلس ، على ما كان فيها من اضطراب سياسى أطاح بدولة الخلافة الأموية وزاده سقوط الخلافة شدة وانتشاراً .

والقرن الخامس فى الأندلس كالقرن الرابع فى المشرق الإسلامى ؛ اضطربت فيع دولة الخلافة وتقلص ظلها ونشأت منها دول صغيرة تنافست فى دعوة العلماء والأدباء ، وتبارت فى الاحتفاء بمن يفد إليها من الشعراء ، وإغداق العطاء لهم رغبة فى حسن السمعة وبعد الصيت .

نشأت دول الطوائف فى الأندلس فى القرن الخامس كما نشأت فى المشرق دول السامانيين والبويهيين والغزنويين والحمدانيين وغيرها .

وأرى أن سير العلم والأدب فى الندلس يتأخر قرناً عن سيرة فى المشرق ، فكبار الفلاسفة وتوابع الشعراء والكتاب الأندلسيين يتأخرون فى الجملة عن نظرائهم فى المشرق قرناً . ولهذا أسباب لا يتسع لها هذا المجال .

تنافست دول الطوائف فى الأندلس فى المكارم والمفاخر ، وفى تشييد الأبنية ، وفى الاعتزاز بالعلماء والأدباء والشعراء الذين ينعمون فى ظلها ويتنافسون فى تخليد مآثرها وتسيير ذكرها فى كتب التاريخ والعلم والأدب .

وبنو عباد كانوا أكثر ملوك الطوائف حظاً من القوة وسعة السلطان وبعد الصيت ، وأوفرهم نصيباً فى وفود الأدباء والشعراء والعلماء إليهم ، بما تسلطوا

على إشبيلية وقرطبة وما يتبعها. وكانت قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ومركز العلوم والآداب ثلاثة قرون، في عهد الأمويين. وبلغت فيها الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس أوجها.

وبنو عباد عرب من لحم ورثوا السيادة والعزة وورثوا حب الأدب، ولاسيما نظم الشعراء والإعجاب به والمشاركة فيه والإثابة عليه.

يقول الأستاذ بالثيا في كتابه تاريخ الفكر الأندلسي^(١):

«وكان الحال في أشبيلية شبيهاً بما كان عليه في المرية. إذ طغى الشعر فيها على ما عداه من أضرب الأدب في ظل بني عباد. ولقد كان المعتمد والمعتمد من أعلام الشعراء. ومن ثم لا نستغرب أن يكون بلاطها مدرسة تخرج فيها أهل الآداب. وقد وصلت الخمريات وشعر النسيب والغزل أعلى درجات الكمال في هذا البلاط المصقول حيث عجز شعراء مجيدون - من طبقة على بن حصن وابن حمديس الصقلي وأبى بكر بن زيدون وأبى بكر بن اللبانة وغيرهم كثيرون - عن إدراك ما وصل إليه ابن غمار وزير المعتمد النابه الذكر المنكود الحظ من تخليق في سماء الشعر. وقصروا كذلك في ملاحقة اعتماد نفسها زوج المعتمد وجارية رُميك التاجر الأشبيلي قبله - فضلاً عن مجارة الملك الشاعر المعتمد فيما أبدعه من روائع القصيد. والحق أن المعتمد وُقِّع أيام مجده وسعوده إلى درجة من التجويد مكنت له من أن يصل بشعره في أبواب الغزل ووصف مجالس السرور ووصف الحرب والنصر إلى آفاق استدرت إعجاب البدو أنفسهم».

(١) ترجمة الدكتور حسين مؤنس.

وثبت هذا أن ينظر القارئ فيما كان بين المعتمد وكبار الشعراء من تقارض الشعر فى أحوال شتى . سيجد القارئ أن المعتمد لم يقصر فى مجارة ابن زيدون وابن عمار وابن حمديس وابن اللبابة بل يجده مبرزاً عليهم أحياناً . وسيمر بالقارئ كثير من تقارض الشعر بين المعتمد وشعرائه فى نعيمه ودولته وبؤسه ومحنته . وحسبنا هذا شهادة لسان الدين بن الخطيب : وما نقله عن ابن الصيرفى قال عن المعتمد :

«كنيته أبو القاسم . وهو الجواد الشجاع البليغ ، ذو الأخبار الشهيرة الذكر ، والأنباء المورثة على الدهر . قال ابن الصيرفى :

«المعتمد على الله محمد بن عباد نسيج وحده فى الجود ، وأصلب نظرائه مكسر هود ، فذ فى البلاغة ، طرف فى الشعر والكتابة ، بارع النظم والنثر ، كثير الأدب ، جزل الألفاظ ، كثير المعانى ، حسن المآخذ ، لدن معاطف الكلام ، رقيق الحاشية ، كثيف المتن ، كثير البديع ، رائق الديباجة ، لائق الاستعارة ، حسن الإشارة ، جم التوليد . لم ينشده من الوزراء والشعراء أشعر منه ، على كثرة ما اجتلب إليه من أعلامه الثناء ، ونثر عليه من دُرِّ الحمد ، ووضع فى يديه من حرّ القريض»^(١) .

كان المعتمد شاعراً مجيداً رقيق الطبع ، مرهف الحس ، يعرب بالشعر عن عواطفه ويسجل به خواطره فى فرحه وترحه وجده وهزله .

كان هو شاعراً والرميكية أم أولاده شاعرة . وكان بنوه شعراء . ومنهم من ترجم له بين أدباء أدباء الأندلس . وكانت بنته بثينة شاعرة ذكرت فى الشواعر الأندلسيات .

(١) منقول من مقدمة ديوان المعتمد للأستاذين أحمد بدوى وحامد عبد المجيد .

وسياتى ذكر أولاد المعتمد وزوجه وأمثلة من شعرهم فى الفصول
الآتية.

شعر المعتمد

فى دولته

سيمر القارئ بكثير مما نظم المعتمد زفرات وحسرات فى أربع السنين
التي احتواه فيها الأسر فى المغرب.

وأثبت هنا بعض ما نظم أيام عزته وصولته فى دولة أبيه المعتضد
ودولته، فى معاهد أنسه وأندية سمره ومجالس أدبه، وفى خطاب الأدباء
وملاطفة الخلطاء.

مما نظم فى عهد أبيه المعتضد أبيات أرسلها إليه حين أرسله قائد جيش
إلى مالقة فانهزم فغضب أبوه غضباً شديداً وعنفه واتهمه أنه ضيع الخزم باللهو
واللعب:

لم أوتَ من زمنى شيئاً ألد به	فلست أعرف ما كأس ولا وتر
ولا تملكنى دكّ ولا خفر	ولا سباً خلدى عنج ولا حور
رضاك راحة نفسى لا فعجتُ به	فهو العتاد الذى للدهر أدخر
وهو المدام التى أسلو بها فإذا	عدمْتُها وقدتُ فى قلبى الفكر
أجل لى راحة أخرى كلفت بها	نظمُ الكلى فى القنا والهام تنتشر

وتوجه إليه الوزير أبو الأصبح بن أرقم رسولا من المعتصم بن صُماح
ملك المرية ومعه الوزير أبو عبيد البكرى والقاضى أبو بكر بن صاحب
الأحباس. فلما قارب إشبيلية أرسل إلى المعتمد أبياتاً منها:

يا مالكا عظمته العرب والعجم
إنا وردناك والأقطار مظلومة
فكتب المعتمد إليه :

حثوا المطى ولو ليلا بمجهلة
لأنتم القوم إن خطوا يُجد قلم
لا عى إن رقموا كتباً ولا حصر
أقدم أبا الأصبح المودود تلق فتى
هذا فؤادى قد طار السرور به
سأكنم الليل ما ألقاه من بعد
وقال المعتضد فى معاهد نعيمه وأنسه فى إشبيلية :

ولقد شربت الراح يسطع نورها
حتى تبدى البدر فى جوزائه
لما أراد تنزهاً فى غربه
وتناهضت زهر النجوم يحفه
وترى الكواكب كالمواكب حوله
وحكىته فى الأرض بين مواكب
إن نثرت تلك الدروع حنادسا
وإذا تغتت هذه فى مـزهر

(١) يعنى بالمواكب الجيش ولذا ذكر الدروع فى البيت التالى . وذكر فى البيت الأخير الغناء على التريك يعنى وقع السلاح على البيض فى الحرب .

وقال وقد لمع البرق فارتفعت جارية كانت تسقيه :

يروعها البرق وفي كفها برق من القهوة لماع
يا ليت شعري وهي شمس الضحى كيف من الأنوار ترتاع
وله مع شعرائه مساجلات تدل على أنه لا يتخلف عنهم في النظم روية
وارتجالا ولا يقع دون كبار الشعراء في لفظه ومعناه . ويقول ابن حمديس في
ختم قصيدة مدح بها المعتمد :

إنا لتخجل في الإنشاد بين يدي رب القوافي التي حلّين بالفقير
من ملك الله حسن القول مقوله فلو رآه ابن حجر عاد كالحجر
ولا أطيل في الكلام على شعر المعتمد . فليرجع القارئ إلى ديوانه ففيه
ألوان من الشعر تدل على طبع شاعر ، وخیال بعيد ، وتصرف في المعاني
والألفاظ بارع^(١) .

(١) نشر الديوان الأستاذان أحمد بدوي وحامد عبد المجيد وكتبوا له مقدمة حسنة وافية .

الشعراء الذين صحبوا المعتمد

نقلت آنفاً قول ابن القطاع في المعتمد:

«كانت حضرته ملقى الرحال، وموسم الشعراء، وقبلة الآمال ومألف الفضلاء. حتى إنه لم يجتمع بيباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه».

وكيف لا يقصد الشعراء والأدباء، في عصره زها فيه الشعر والأدب، ملكاً أديباً شاعراً يأنس بهم، ويغدق عليهم العطاء، ويصادقهم ويُجلّهم ويتخذ منهم وزراء وندماء.

وهذا ذكر من عرفوا بصحبة المعتمد من شعراء الأندلس. ومن هؤلاء ثلاثة ذهبوا مثلاً سائراً في الوفاء، وسيأتي ذكرهم في محنة المعتمد. وهم ابن اللبانة وابن حمديس وأبو بحر بن عبد الصمد.

أبو بكر الداني

المعروف بابن اللبانة

أذكره هنا في جملة شعراء المعتمد. وأعظم مآثر هذا الشاعر وأكبر مفاخره وفاءه للأمير في أسره، ومواساته في مجنته. وسيأتي ذكره في أيام هذه المحنة. فحسبى هنا أن أقول إنه اتصل ببني عباد منذ أيام المعتضد وأحسن مدحهم وأحسنوا جزاءه.

ومن مدائحه موشحة أولها^(١):

(١) المغرب ج ٢ ص ٤١٥.

كم ذا يورقنى ذو حَدِّقِ مرضى صحاح لا بليتة بالأرق
قد باح دمعى لما أكتمه
وحنُّ قلبى لمن يظلمه
رشأ تمرن فى «لا» فمه
كم بالمنى أبداً الثممه
يفتر عن لؤلؤ فى نسقٍ من الأقاح بنسيمه العبق
يقول فيها:

أبدى لنا حمرة فى يَقَقَ خدَّ الصباح فيه حمرة الشفق
من لى بمدح بنى عباد
ومن محمدهم إحمادى
تلك الهبات بلا متعاد
عذرت من أجلها حسادى
حكتنى الورق بين الورق راشوا جناحى ثم طوقوا عنقى
لله ملك عليه اعتمدا
من يعرب وهو أسناهم يدا
وهم إذا عنّ وفد وفدا
سألوا بحاراً وصالوا أسدا
إن حاربوا أو دعوا فى فسق راحوا براح . للندى والعلق

وله موشحة أخرى يقول فيها مادحاً الرشيد بن المعتمد:

سطا وجاد رشيدُ بنى عباد فأنسى الناس رشيدُ بن العباس

وقد ألف هذا الشاعر كتاباً سماه «الاعتماد فى أخبار بنى عباد» كما

ألف كتاباً فى أخبارهم بعد نكبتهم سماه «نظم السلوك فى مواعظ الملوك».

ابن حمديس

ومن الشعراء الذين أظلتهم دولة بني عباد، فنعموا في ظلالها، وغردوا في أفيائها، ابن حمديس الصقلي.

فارق عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الصقلي بلده سرقوسة من جزيرة صقلية حينما استولى النرمانديون على الجزيرة سنة سبعين وأربعمائة هـ. وانتهى به المسير إلى إشبيلية. فقرّ به المعتمد بن عباد. وأشاد هو بالأمر وسير في مدحه قصائده، وصحبه في سلّمه وحربه، ثم واساه في أسره.

روى صاحب نفح الطيب عن ابن حمديس أنه قال:

«أقمت بإشبيلية، لما قدمتها على المعتمد بن عباد، مدة لا يلتفت إلى ولا يعأبى حتى فطنت لحبتي مع فرط تعبى، وهممت بالنكوص على عقبى. فلإنى لكذلك ليلة من الليالى فى منزلى إذا بغلام معه شمعة ومركوب. فقال لى أجب السلطان. فركبت من فورى ودخلت عليه. فأجلسنى على مرتبة فتك. وقال لى افتح الطاق التى تليك. ففتحتها فإذا بكور زجاج على بُعد، والنار تلوح من بابيه. وواقدة تفتحهما تارة وتسدهما أخرى. ثم دام سدّ أحدهما وفتح الآخر فحين تأملتتهما قال لى آجز:

انظرهما فى الظلام قد نجما

فقلت: كما رنا فى الدجنة الأسد

فقال: يفتح عينيه ثم يطبقها

فقلت: فعل امرئ في جفونه رمد

فقال: فابتزه الدهر نور واحدة

فقلت: وهل نجا من صروفه أحد

فاستحسن ذلك وأمر لي بجائزة سنية وألزمي خدمته.

وللشاعر في مدح المعتمد الأملى الجواد الشاعر ووصف حروبه، قصائد
غزاء تضمنها ديوانه.

ولم يقصر ابن حمديس في الوفاء لأميره حين حلت به الفاجعة.
وذهب إليه في أغمات كما ذهب ابن اللبانة.

وسياتي في الحديث على محنة المعتمد طرف من أخبار الشاعر معه في
هذه المحنة. وبعض ما أنشأ من الشعر توجعاً للأمير وتفجعاً.

أبو بحر بن عبد الصمد

ومن شعراء المعتمد أبو بحر بن عبد الصمد. ومن مديحه قوله:

خضعت لعزتك الملوك الصيدُ وعنت لك الأبطال وهي أسود

فاطعن ولو أن الثريا ثغرة واضرب ولو أن السمك وريد

وافتح ولو أن السماء معاقل واهزم ولو أن النجوم جنود

وقد رثى هذا الشاعر ممدوحه ووقف على قبره وأنشد قصيدة باكية ومرغ

وجهه في التراب فأبكى الحاضرين. وسياتي ذكر هذا.

ابن زيدون

اتصل ابن زيدون بالمعتضد العبادي ولد المعتمد سنة ٤٤١هـ فاحتفى به واستوزه. ثم سماه ذا الوزارتين فلبث في كنفه زهاء عشرين عامًا. ومدحه وفاء ما لقي في جنبه من عزة ونعماء.

ولما مات المعتضد رثاه ابن زيدون. واتصل بالمعتمد فكان قره عينه وزينة دولته. ولما فتح المعتمد قرطبة بلد ابن زيدون رجع إلى بلده في كنف المعتمد وعلت مكانته. ثم أرسله المعتمد إلى إشبيلية لفتنة وقعت بها ومعه أحد أبناء المعتمد فمات ابن زيدون هناك سنة ٤٦٣هـ.

وله قصائد في مدح المعتضد يسير بها الذكر ويزهو بها الشعر. منها قصيدة هي في ترتيب الديوان أول ما مدح به المعتضد. . ويقول فيها:

من مبلغ عنى الحبة إذ أبت	ذكراهم أن يطمئن مهّاد
لا بأس. رب دنّو دار جامع	لشمل قد أدّى إليه بعاد
إن أغترب فمواقع الكرم الذى	فى الغرب شمتُ بروقه ارتاد
أو أنا عن صيد الملوك بجانبي	فهم العبيد ملىكهم عبّاد
المجد عذر فى الفراق لمن نأى	لينرى المصانع منه كيف تُشاد
يا هل أتى من ظنّ بى فظنونه	شتّى ترجّع بينها الأضداد
إنى رأيت المذرين كليهما	فى كون مُلك لم يُحله فساد
وبصّرت بالبُردين إرث محرق	لم يَخْلُقَا إذ تَخْلُقُ الأبراد
وعرفتُ من ذى الطّوق عمرو ثاره	لجذيمة الوضّاح حين يُكاد

وأتى بى النعمانَ يوم نعيمه نجمٌ تلقى سعدَه الميلاد
قد ألفت أشتاتهم فى واحد إلا يكنهم أمةً فيكاد
وقد ذكر المنذرين ومحرقاً وعمراً وجذيمة والنعمان وهم من ملوك
المناذرة إذ كان بنو عباد ينتسبون إليهم.

ويقول فى قصيدة أخرى:

أليس بنو عباد القبلة التى عليها لآمال البرية معكف
ملوك يرى أحباؤهم فخرَ دهرهم ويخلف موتاهم ثناء مخلف
وأما المعتمد فلا بن زيدون فيه مدائح كثيرة فى إمارة أبيه وإمارته، تُعرب
عن إحماد صحبته، وشكر نعمته. وقد أولع المعتمد بالإلغاز عن أبيات عن
أبيات من الشعر يطلب إلى ابن زيدون بيانها. وفى ديوان ابن زيدون كثير
منها.

وحسب الشاعر لأن يكتب إليه المعتمد قصيدة يعاتبه بها على تأخر
جوابه عن شعر بعث به. يقول فيها:

على ذاك أفديك من ماجد تشبث بالظرف فيه الهدى
فحيناً أزور به روضةً وحيناً أحى به مسجداً
لك العلم مهما أرد بحرهِ لأروى به أحمد الموردا
وفيك تجمعت المآثرات طراً فصرت بها مفردا
شمال تنثر شملَ الهموم نثرِك بالرائى شمل العدا
فمتعنى الله بالخط منك ولا زلت لى مؤنساً سمرمداً

ودمت ودمنا على حالنا كما يصحب الفرقد الفرقدا
فلولاك كانت ربوع السرور منى تجاوب فيها الصدى
فأجاب ابن زيدون بقصيدة منها:

وطاعة أمرك فرض أراه من كل مفترض أوكدا
هى الشرع أصبح دين الضمير فلو قد عصاك لقد أهدا
وحاشاى من أصل الصراط فيعدو بى الكفر عما بدا
وأخلف بالوعد من لا أرى لدهرى إلا به موعدا
أتانى عتاب منى أوكده فى نشوات الكرى أسهدا

وفى أبيات المعتمد وابن زيدون ما يرى القارئ أن المعتمد لا يقصر فى
النظم عن الشاعر الكبير. ويطرد هذا فيما نراه فى ديوان ابن زيدون من شعر
له وللمعتمد فى مراسلاتهما ومساجلاتهما - ما عدا القصائد المطولة التى لا
نجد للمعتمد أمثالها.

ومما ينبغى ذكره هنا أن أحد حساد ابن زيدون أرسل إلى المعتمد شعراً
يعرض فيه بابن زيدون، ويغرى المعتمد بقتله وقتل كل من يرتاب فيه ويتبع
سنة أبيه فى قتل أعدائه. وأول الشعر:

يأيها الملك العلى الأعظم اقطع وردى كل باغ ينسم
وأحسم بسيفيك داء كل منافق يبدى الجميل وضد ذلك يكتم
لا تحقرن من الكلام قليله إن الكلام له سيوف تكليم
وهى سبعة وعشرون بيتاً.

فكتب المعتمد على ظهر الورقة التي فيها الشعر:

كذبت منّا صرّحوا أو جمجموا الدين أمتن والسجية أكرم
خنتم ورمتم أن أخون وإنما حاولتم أن يستخفّ يللم
وأردتم تضيق صدر لم يضق والمرّ في ثغر الصدور تحطم
وزحفتكم بمحالكم لمجرّب ما زال يثبت للمحال فيهزم
أنّى وجوتم غدر من جرّبتكم منه الوفاء وظلم من لا يظلم
أنا ذاكم لا البغى يُثمر غرسه عندي ولا مبنى الصنعة يُثلم
كفّوا وإلا فارقبوا لى بطشة يلقي السفية بمثلها فيحلّم
وبلغت القصة ابن زيدون فأنشأ خمسين بيتاً يمدح المعتمد ويشكره على

تخيب مسعاة الساعين - منها:

أنى أؤدى فرض أنعمك التى وبليت كما ويل السحاب المثجم
أطيتنى متن السماءك برتبة علينا منكب عزاها لا يزحم
وتركت حسادى عليك وكلهم شاكى حشا يذوى وأنف يرغم
نصح العدا فيزعمهم فوقمتهم والغش فى بعض النصائح مدغم
وئناهم ثبت قنأة أناته خلقاء يصلب عودها إذ يعجم
وزهاهم نظم الهراء فكفّهم نظم عقود السحر منه تنظم

ابن عمار

اتصل الشاعر ابن عمار بالمعتضد بن عباد وبالمعتمد فى أيام أبيه المعتضد وله فيهما مدائح ، وكان المعتمد قاد جيشاً إلى شلب ففتحها سنة ٤٤٤ هـ ولقى هناك أبا بكر بن عمار . وتمكنت بينها المودة ومدح الشاعر أميره وصديقه بقصائد بليغة سارت بين الأدباء وذاعت .

وصحب ابن عمار المعتمد إلى إشبيلية فأقام معه إلى أن انكر المعتضد شغل ابنه بهذا الشاعر فنفاه إلى سرقسطة .

ولما تولى المعتمد بعد وفاة أبيه دعا صديقه الشاعر وخيرَه فى ولاية يُولاها فاختر شلب .

ثم لم يصبر المعتمد عنه فدعاه إلى حضرته واستوزره . وشارك ابن عمار فى جروب المعتمد التى دفع بها الأسبان عن إشبيلية كما شارك من قبل أبو الطيب فى حروب سيف الدولة .

وفتح ابنُ عمار مرسية للمعتمد فملكه العُجب ، وتزيا بزى الأمراء حتى ارتاب فيه المعتمد .

ونظم ابن عمار قصيدة يفخر فيها ويحرض أهل بلنسية على الثورة على أميرها . وكان صديق المعتمد وأول القصيدة .

بشر بلنسية وكانت جنة أن قد تدلت فى سواء النار ويقول فيها :

كيف التفلت بالخدعة من يدى رجل الحقيقة من بنى عمار

فغضب المعتمد على ابن عمار وعارض قصيدته بشعر فيه سخرية بينى
عمار. فثار الشعر وأنشأ شعراً هجاً به المعتمد وأم أولاده الرميكية هجاء
مقذعاً. ووقعت نسخة من الشعر بخط ابن عمار في يد المعتمد. وانتهت
الحادثات بأسر ابن عمار في بعض مغامراته فأسلمه أسره إلى المعتمد فحبسه
وقتله.

ومما كتب المعتمد للوزير ابن عمار أيام صداقتهما:

لما نأيت نأى الكرى عن ناظرى ورددته لما رجعتَ عليه^(١)
طلب البشير بشارة يُجزى بها فوهبت قلبي واعتذرت إليه
وفى نفح الطيب^(٢):

ركب المعتمد في بعض الأيام قاصداً الجامع والوزير أبو بكر بن عمار
يسايره. فسمع أذان المؤذن - فقال المعتمد:

هذا المؤذن قد بدا بأذانه

فقال ابن عمار: يرجو بذاك العفو من رحمانه

فقال المعتمد: طوبى له من شاهد بحقيقة

فقال ابن عمار: إن كان عقد ضميره كلسانه

وأدخلت على المعتمد يوماً باكورة نرجس فكتب إلى ابن عمار

يستدعيه:

(١) فى نفح الطيب: لما انصرفت إليه.

(٢) جده ص ١٤٩.

قَد زارنا النرجس الذكى وأن من يومنا العشى
وعندنا مـجلس أيق وقد ظمئنا وفيه رى
ولى خليل غدا سميتى يا ليتـه ساعد السـمى^(١)
فأجابه ابن عمار:

لبـيك لبـيك من مناد له السندى الرحب والسندى
هأنا بالباب عبـدٌ قن قبـلته وجهك السنـى
شـرفه والداه باسم شـرفته أنت والنـبى

وكان المعتمد غضب على ابن عمار فى بعض الحادثات، وعتب ابن
عمار على المعتمد فكتب إليه يعتب ويطلب الصفح فى قصيدة أولها:

أأسلك قصدى أم أعوج عن الركب فقد صرتُ من أمرى على مركب صعب
وأصبحت لا أدرى أفى البعد راحتى فأجعله حظى أم الحظ فى القرب
ويقول فيها:

أهابك للحق الذى لك فى دمي وأرجوك للحب الذى لك فى قلبى
أُظلم فى وجهى كذا قمر الدجى وتنو بكفى صفحة الصارم العصب
إلى أن يقول:

أما إنه لولا عوارفك التى جرت جريان الماء فى الغصن الرطب
لما سُمّت نفسى ما أسوم من الأذى ولا قلت إن الذنب فيما جرى ذنبى

(١) المعتمد وابن عمار كلاهما اسمه محمد.

فأجاب ابن عباد:

ورِدْ تلقك العُتْبَى حجاباً من العُتْب	تقدم إلى ما اعتدت عندى من الرحب
صَفوحاً عن الجانى رءوفاً على الصَّحْب	متى تلقنى تلق الذى قد بلوته
وأصْفح عما كان إن كان من ذنب	سأوليك منى ما عهدت من الرضا
ولا صار نسيان الأذمة من شعبي	فما أشعرَ الرحمن قلبى قسوة
وكيف يعانى الشعر مشتركُ اللب	تكلفته أبغى به لك سلوة

ولكن الشاعر أشفق من العودة إلى المعتمد، فاستمر على نفاره حتى أسلمته الحوادث إلى يد المعتمد. وقصيدة ابن عمار التى هجا فيها المعتمد مطلعها:

أناخوا جمالاً وحازوا جمالا	ألا حى بالغرب حياً حلالا
ونم فعسى أن تراها خيالا	وعرّج يُّومين أمّ القرى

ويومين قرية بإشبيلية. كان منها أولية بنى عباد.

ويقول فيها عن الرُمَيْكية أم أولاد المعتمد:

رميكية ما تساوى عقالا	تخيرتها من بنات الهجان
لثيم النجارين عمّا وخالا	فجاءت بكل قصير العذار
أقاموا عليها قُروناً طوالا	قصار القدود ولكنهم

إلى أن يقول:

وأكشف سرك حالاً فحالا	سأهتك عرضك شيئاً فشيئاً
-----------------------	-------------------------

ومنها:

فيا عامر الخيل يا ريدها منعت القرى وأبحت العيالا
وهذا من ابن عمار كفران نعمة وحمق . أنشأ هذا الهجاء وظن أنه
يخفى على المعتمد فبلغه بخط ابن عمار كما قيل . فكان فيه حتفه .

ومما استعطف به المعتمد وهو فى سجنه - قصيدة أولها:

سجايك إن عافيت أندى وأسمع وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح
وإن كان بين الخطتين مزية فأنت إلى الأدنى من الله أجح
ويقول فيها:

أقلنى بما بينى وبينك من رضا له نحو روح الله باب مفتح
وعفّ على آثار جُرم جنيثته بهبة رُحمى منك تمحو وتصفح
ولا تلتفت رأى الوشاة وقولهم فكلّ إناء بالذى فيه يرشح
ويختمها بقوله:

سلام عله كيف دار به الهوى إلى فيدنو، أو على فينزع
ويهنيه إن مت السلو فلإنى أموت ولى شوق إليه مبرح

عبد الجليل بن وهبون

يقول صاحب قلائد العقيان في ترجمة هذا الشاعر إنه كان متصلاً بالوزير الشاعر ابن عمار «فأعلقه بدولته وألحقه بجملته ونفقه بعد الكساد، وطوّقه من استخلاصه ما أغاظ به الحساد. كان يعتقد تقدمه، ويعقد بنواصي الشعراء قدمه، إلا أنه مع تمييزه له بالإحطاء، وتجويزه إياه عند الاقتضاء، لم يوصله عند المعتمد إلى حظ، ولم ينله منه إلا كرة لحظ».

ويقول أيضاً في ترجمته:

«ودخل المرية وقد أخرج المعتمد على الله وأضجره، حتى أبعد هجره. فلما كان يوم العيد وحضر المعتصم شعراؤه، واجتمع كتابه ووزراؤه، بعث في عبد الجليل فتأخر وزرى بالحال وسخر. وقال: أبعد المعتمد أحضر متدي؟ أو أستمطر جوداً أو ندى؟ وهل تروق الأعياد إلا في فنائنه أو تحسن الأمداخ إلا في سنائه.

دنا العيد لو تدنوا لنا كعبة المنى وركن المعالي من ذؤابة يعرب
فوا أسفاً للشعر تُرمى جماره ويا بُعد ما بيني وبين المحصب

أقول: المعتصم المذكور هو ابن صمادح أمير المرية. ولعل القارئ يسأل: كيف جرؤ ابن وهبون على الامتناع عن حضرة المعتصم يوم عيد وهو في بلده؟ وكيف قال إنه لا يمدح إلا ابن عباد؟ والجواب أنا لا نعلم أن ابن وهبون جهر بهذا القول في المرية. ثم مدحه المعتمد ولو جهر به، يحميه من نقمة المعتصم إذ كان المعتمد أميراً يهابه أمراء الطوائف ويتوددون إليه.

وفى نفح الطيب^(١) أن المعتمد جلس يوماً والبزاة تُعرض عليه فاستحثّ الشعراء فى وصفها، فصنع ابن وهبون بديهاً:

للصيد قبلك سنة مأثورة لكنها بك أبدع الأشياء
تُمنى البزاة وكلما أمضيتها عاطبتها بخواطر الشعراء
وأنه كان فى قصر المعتمد فيل من الفضة، يتدفق الماء من فمه إلى بركة
فقال عبد الجليل بن وهبون قصيدة فى وصفه.

وهكذا يُعدّ ابن وهبون من الشعراء الذين اتصلوا بالمعتمد وعاشوا فى كنفه. وسيأتى فى أخبار وقعة الزلاقة أنه كان ممن حضر مجلس المعتمد حين هنأه الناس وأنه أعد قصيدة فى هذا فلما سمع القارئ احتقر قصيدته.

شعراء آخرون

ومن الشعراء الذين مدحوا المعتمد ابن القزاز محمد بن عبادة.

وله قصيدة يذكر فيها جرح يد المعتمد فى وقعة الزلاقة التى قدمنا ذكرها
يقول فيها:

جلبت إلى الأعادى أسد غاب برائنها الأسنة والصّفاح
وقفت وموقفُ الهيجاء ضنك وفيه لباعث الرحب انفساح
والسنة الأسنة قـالـات إذا ظهر المؤيد لابراح^(٢)
ومنها:

وقالوا كفّه جُرحتُ فقلنا أعاديه توافقهـا الجراح

(١) ج ٦ ص ٢٩٣.

(٢) المغرب ج ٢ ص ١٣٤.

وما أثر الجراحة ما رأيتم فتوهنها المناصل والرماح
ولكن فاض سيل الجود فيها فأمسى فى جوانبها انسياح
وقد صحت وسحت بالأمانى وفاض الجود منها والسماح
ومن شعراء المعتمد ابن مرزقان مولاه، وأبو الوليد المصيصى، وابن
المرعز النصرانى الإشبلى^(١) وغيرهم.

وقلّ أن تجد شاعراً فى الأندلس أو ما يقاربها من البلاد إلا اتصل
بالمعتمد ومدحه ونال جوائزه.

هذا إلى شعراء اتصلوا بالمعتضد ومدحوه، ولم يدركوا إمارة المعتمد،
مثل على بن حصن. وقد استوزره المعتضد ثم فتك به^(٢).

ومن غريب ما يروى أن الحصرى الشاعر، كان ألف للمعتمد كتاب
«المستحسن من الأشعار» فلم يُقدر له لقاء المعتمد إلا حين اجتاز إلى طنجة
أسيراً.

يقول صاحب النفع:

«فلما أخذ المعتمد الكتاب قال للحصرى: ارفع ذلك البساط فخذ ما
تحتّه، فوالله ما أملك غيره. فوجد تحتّه جملة مال فأخذه»^(٣).

(١) المغرب ج١ ص ٢٦٤.

(٢) المغرب ج١ ص ٢٤٥.

(٣) المغرب ج٥ ص ٣٧٩.

ملوك الطوائف ونصارى الشمال

ضعفت سطوة المسلمين فى الأندلس، بعد عبد الرحمن الناصر والمنصور ابن أبى عامر إذا ضعفت الدولة الأموية التى سيطرت على البلاد قوية مهية ما بين سنة ١٣٨ وسنة ٤٠٠ هـ ثم زلزلت حتى زالت سنة ٤٢٢ هـ.

وتقسّم ملوك الطوائف البلاد بينهم متنافسين متنازعين. كلّ يهتم بنفسه ومملكه، ويلقى العدو وحده إذا نزلوا بساحته. حتى طمع فيهم العدو وفرض عليهم الجزية. فأدّوها هائبين مؤثرين العافية، راضين بالسلامة. يقول الأستاذ بلنثيا فى كتابه «الفكر الأندلسي»^(١):

«إن انتشار عقد الأندلس وتفرق أمره فى دول الطوائف كان سبب ضياع أمره. لأن هذه الدويلات الصغيرة كانت على حال من الضعف لم تستطع معها أن تثبت لهجمات النصارى الذين انتهجوا خطة تختلف عما كان عليه المسلمون إذ ذاك. واتجهوا إلى توحيد قواهم أمام المسلمين الذين لم تتوقف الخصومات بينهم قط. بل أصبح ألفونسو السادس بعد استيلائه على طليطلة سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) فى مركز مكن له من أن يُعين بعض ملوك الطوائف على بعض ويتدخل فى شئون مملكة بلنسية. وعظمت قوته واشتد خطره على المسلمين حتى خافه المعتمد وزوجه إحدى بناته»^(٢).

وزاد هذا الخنوع طمع الأسباب وألفافهم واجترأهم. فاشتطوا فى الجزية وساموا المسلمين الهوان. حتى أرسل ألفونسو السادس ملك الفرنج إلى

(١) ترجمة الدكتور حسين مؤنس.

(٢) رواية غريبة لم أطلع عليها فى كتاب عربى. وما أظن المعتمد ذل هذا الذل.

المعتمد ابن عباد يطلب زيادة الجزية ويشتط في مطالبه فغضب المعتمد وقتل الرسل وعزم على الحرب، وهو يعلم أنه لا قبل له بالعدو وإن اعتضد بملوك الطوائف جميعاً. ففاوض هؤلاء الملوك في الاستنجاد بيوسف بن تاشفين سلطان المرابطين الذين قامت دولتهم في المغرب فتية قوية فيها قوة البادية وشظفها وخشونتها، وفيها الحماسة الإسلامية لم يطفئها الترف، ولم يوهنها السكون إلى الدعة وإيثار العقابة.

وأدع الكلام هنا لأبى عبد الله الحميرى الأندلسى صاحب «الروض المعطار» ليقص هذه القصة مفصلة إلى موقعة الزلاقة وما بعدها. وأنا أؤثر في كل هذا المقال أن أقص حوادث الأندلس بلسان أهله لأجمع إلى التاريخ صوراً من الأدب وأمثلة من أقوال الكتاب والمؤرخين في ذلك العصر. وهذا ما كتبه صاحب «الروض المعطار»:

«وكان السبب في ذلك فساد الصلح المنعقد بين الطاغية وبين المعتمد^(١) فإن المعتمد اشتغل عن أداء الضريبة في الوقت الذى صارت عادته يؤديها فيه بغزو ابن صمادح صاحب المرية واستنقاذه ما في يديه بسبب ذلك فتأخر لأجل ذلك أداء الإتاوة عن وقتها. فاستشاط الطاغية غضباً وتشطط فطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة. وأمعن في التجنى فسأل في دخول امرأته القُمطيجة إلى جامع قرطبة لتلد فيه من حمل كان بها، حيث أشار إليه بذلك القسيسون والأساقفة لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربى منه معظمة عندهم، عمل المسلمون عليها الجامع الأعظم. وسأل أن تنزل امرأته المذكورة بمدينة

(١) يروى أن المعتمد عاهد ألفونسو ليدفع به شر بنى ذى النون في طليطلة، وأن هذا العهد مكن الطاغية من الاستيلاء على طليطلة فندم ابن عباد حين لم ينفع الندم.

الزهراء غربى مدينة قرطبة. تنزل بها فتختلف منها إلى الجامع المذكور حتى تكون تلك الولادة. بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة ذلك الموضع الموصوف من الجامع. وزعم أن الأطباء أشاروا عليه بالولادة فى الزهراء كما أشار عليه القسيسون بالجامع. وسفر بذلك بينهما يهودى كان وزيراً لابن فردلند فتكلم بين يدى المعتمد ببعض ما جاء به من عند صاحبه. فأياسه ابن عباد من جميع ذلك فأغلظ له اليهودى فى القول وشافهه بما لم يحتمله. فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه فانزلها على رأس اليهودى فألقى دماغه فى حلقه. وأمر به فصلب منكوساً بقرطبة.

واستفتى ابنُ عباد الفقهاء لما سكت عنه الغضب عن حكم ما فعله باليهودى. فبادره الفقيه محمد بن الطلاع بالرخصة فى ذلك لتعدى الرسول حدود الرسالة إلى ما يستوجب له القتل إذ ليس له أن يفعل ما فعل. وقال للفقهاء حين خرجوا: إنما بادرت بالفتوى خوفاً أن يكسل الرجل عما عزم عليه من منابذة العدو وعسى الله أن يجعل فى عزمته للمسلمين فرجاً.

وبلغ ألفنسو ما صنع ابن عباد فأقسم باللهته ليغزونه بإشبيلية ويحصره فى قصره. فجرد جيشين جعل على أحدهما كلباً من مساعير كلابه. وأمره أن يسير على كورة باجة من غرب الأندلس، ويغير على تلك التخوم والجهات ثم يمر على لبلة إلى إشبيلية. وجعل مواعده إياه طريانة للاجتماع معه. ثم زحف ابن فرزلند بنفسه فى جيش آخر عرمرم. فسللك طريقاً غير طريق صاحبه. وكلاهما عاث فى بلاد المسلمين وخرّب ودمر، حتى اجتمعا لموعدهما بضفة النهر الأعظم قبالة قصر ابن عباد. وفى أيام مقامه هناك كتب إلى ابن عباد زارياً عليه: «كثر بطول مقامى فى مجلس الذبان، واشتد على

الحرّ. فألقني من قصرِكَ بمروحة أروّح بها على نفسي وأطرد بها الذباب عني»
فوقع له ابن عباد بخط يده في ظهر الرقعة: «قرأت كتابك وفهمت خيلاءك
وإعجابك. وسأنظر لك في مرواح من الجلود اللمطية في أيدي الجيوش
المرابطة تروّح منك لا تروح عليك إن شاء الله». فلما ترجم لابن فردلند
توقيع ابن عباد في الجواب، أطرق إطراق من لم يخطر له ذلك ببال.

وفشا في بلاد الأندلس خبر توقيع ابن عباد وما أظهر من العزيمة على
إجازة الصحراويين والاستظهار بهم على ابن فردلند. فاستبشر الناس وفتحت
لهم أبواب الآمال. وانفرد ابن عباد بتدبير ما عزم عليه من مداخلة يوسف بن
تاشفين. ورأت ملوك الطوائف بالأندلس ما عزم عليه من ذلك. فمنهم من
كتب إليه ومنهم من شافهه، كلهم يحذره سوء عاقبة ذلك وقالوا له: الملك
عقيم والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد. فاجابهم ابن عباد بكلمته السائرة
مثلا: رعى الجمال خير رعى الخنازير. أى أن كونه ماكولا لابن تاشفين أسيراً
يرعى جماله في الصحراء، خير من كونه ممزقاً لابن فردلند ففي الممكن أن
يفيا لى ويُبقيا علىّ، ويمكن ألا يفعلا فهذه حالة الشك. وأما حالة اليقين
فهى أنى إن استندت إلى ابن تاشفين فأنا أرضى الله. وإن استندت إلى ابن
فردلند أسخطت الله. فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة فلاى شىء أدع ما
يرضى الله وآتى ما يسخطه. وحيئنذ أقصر أصحابه عن لومه.

فلما عزم خاطب جاريه المتوكل عمر بن محمد صاحب بطليوس، وعبد
الله ابن حبوس بن ماكسن الصنهاجى صاحب غرناطة يامرهما أن يبعث إليه
كل واحد منهما قاضى حضرته ففعلا. ثم استحضر قاضى الجماعة بقرطبة أبا
بكر عبيد الله بن أدهم وكان أعقل أهل زمانه. فلما اجتمع القضاة عنده

ياشيلية أضاف إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون وعرفهم أربعتهم أنهم رسله إلى يوسف بن تاشفين وأسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف وترغيبه في الجهاد وأسند إلى ابن زيدون ما لا بد منه في تلك السفارة من إبرام العقود السلطانية^(١). وكان يوسف بن تاشفين لا تزال تفد عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين مجهشين بالبكاء، ناشدين الله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته. فيستمع إليهم ويصغي لقولهم وترقّ نفسه لهم. فما عبرت رسل ابن عباد البحر إلا ورسل يوسف بالمرصاد وقد آذن صاحب سبته بقصده الغزو وتشوقه إلى نصرة أهل الإسلام بالأندلس، وسأله أن يخلّي الجيوش تجوز في المجاز. فتعذر عليه. فشكاه يوسف إلى الفقهاء فأفتوا أجمعين بما لا يسر صاحب سبته.

ولما انتهت الرسل إلى ابن تاشفين أقبل عليهم، وأكرم مثواهم، وجدّدوا الفتوى في حق صاحب سبته. واتصل ذلك بابن عباد فوجه من إشبيلية أسطولاً نحو صاحب سبته فانتظمت في سلك يوسف. ثم جرت بينه وبين الرسل مراوضات ثم انصرفت إلى مرسلها.

ثم عبر يوسف البحر عبوراً هنيئاً حتى أتى الجزيرة ففتحوا له وخرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات. وجعلوا سماءاً أقاموا فيه سوقاً جلبوا عليه من عندهم من سائر الرافق. وأذنوا للغزاة في دخول البلد والتصرف فيها. فامتلأت المساجد والرحبات بضعفاء المطوعين وتواصوا بهم خيراً.

(١) يقول المراكشي إن المعتمد نفسه عبر إلى المغرب لاستنجد يوسف وأحسب هذا وهماً من المراكشي.

فلما عبر يوسف وجميع الجيوش انزعج إلى إشبيلية على أحسن الهيئات جيشاً بعد جيش، وأميراً بعد أمير، وقبلاً بعد قبيل، وبعث المعتمد ابنه إلى لقاء يوسف. وأمر عمال البلاد بجلب الأقوات والضيافات. ورأى يوسف من ذلك ما سره ونشّطه. وتواردت الجيوش مع أمرائها في إشبيلية، وخرج المعتمد إلى لقاء يوسف من إشبيلية في مائة فارس ووجوه أصحابه. فأتى محلة يوسف فركض نحو القوم وركضوا نحوه. فبرز إليه يوسف وحده والتقى منفردين وتصافحا وتعانقا. وأظهر كل واحد منهما المودة والخلوص. فشكرا نعم الله، وتواصيا بالصبر والرحمة، وبشرا نفسيهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر. وتضرعا إلى الله تعالى في أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه مقرباً إليه. وافترقا، فعاد يوسف لمحلته، ورجع ابن عباد إلى جهته. ولحق بابن عباد ما كان أعداه من هدايا وتحف وألطف أوسع بها محلة ابن تاشفين. وبنوا تلك الليلة.

فلما صلوا الصبح ركب الجميع. وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدم إلى إشبيلية ففعل ورأى الناس من عزة سلطانه ما سرهم. ولم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا من بادر وأعان وخرج وأخرج. وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف بكل صقع من أصقاعه رابطوا وصابروا.

ولما تحقق ابن فردلند جواز يوسف، استنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما وراءها. ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم، ونشروا أناجيلهم. فاجتمع له من الجلالة والإفرجة وما يليهم ما لا يحصى عدده. وجعل يصغى على أنباء المسلمين متغيظاً على ابن عباد، جافياً ذلك عليه، متوعداً له. وجواسيس كل فريق مترددون بين الجميع. وبعث ابن فردلند إلى

ابن عباد: إن صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده، وخاض البحور، وأنا أكفيه العناء فيما بقى ولا أكلفكم تعباً. أمضى إليكم وألقاكم فى بلادكم رفقاً بكم وتوفيراً عليكم. وقال لأهل وده ووزرائه: إني رأيت إن أمكنتهم من الدخول إلى بلادى فناجزونى بين جُدرها، وربما كانت الدائرة على، فيكتسحون البلاد ويحصدون من فيها فى غداة، لكن أجعل يومهم معى فى حوز بلادهم. فإن كانت على اكتفوا بما نالوه ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلا بعد أهبة أخرى. فيكون فى ذلك صون لبلادى وجبر لمكاسرى. وإن كانت الدائرة عليهم كان منى فيهم وفى بلادهم ما خفت أنا أن يكون منهم فى وفى بلادى، إذا ناجزوني فى وسطها.

ثم برز بالمختار من أنجاد جموعه على باب دربه، وترك بقية جموعه خلفه. وقال حين نظر إلى ما اختاره من جموعه: بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء. فالمقل يقول: كان هؤلاء المختارون من إجناده أربعين ألف دارع. ولا بد لمن هذه صفته أن يتبعه واحد أو اثنان. وأما النصارى فيتعجبون ممن يزعم ذلك^(١) ويقوله. واتفق الكل أن عدة المسلمين كانت أقل من عدة المشركين. ورأى ابن فرذلند فى نومه كأنه راكب على فيل فضرب نقيرة طبل فهايته رؤياه وسأل عنها القسوس والرهبان فلم يجبه أحد ودس يهودياً إلى من يعلم تأويلها من المسلمين فدل على عابر فقصها عليه ونسبها إلى نفسه فقال له العابر: كذبت ما هذه الرؤيا لك ولا بد أن تخبرنى من صاحبها وإلا لم أعبرها لك، فقال له: أكتم ذلك هو ألفنسو بن فرذلند فقال العابر: قد علمت أنها رؤياه ولا ينبغي أن تكون لغيره وهى تدل على بلاء عظيم ومصيبة فادحة

(١) النفخ: ويرون أنهم أكثر من ذلك كله.

تؤذن بصلبه عما قريب؛ أما الفيل فقد قال الله تعالى: «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل». . . السورة، وأما ضرب النقيرة فقد قال الله تعالى: «فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير» . . . الآية، فانصرف اليهودى إلى ابن فرذلند وجمعهم له وذكر له ما وافق خاطره ولم يفسرها له.

ثم خرج ابن فرذلند ووقف على الدروب، ومال بجيوشه إلى الجهة الغربية من بلاد الندلس، فتقدم يوسف فقصده، وتأخر ابن عباد لبعض الأمر ثم انزعج يقفو أثره بجيش فيه حماة الثغور ورؤساء الأندلس، وجعل ابنه عبد الله على مقدمته وسار وهو يتفائل لنفسه مكملًا البيت الشهور (كامل):

لابد من فرج قريب	يأتيك بالعجب العجيب
غزو عليك مبارك	سيعود بالفتح القريب
له سعادته إنه	نكس على دين الصليب
لابد من يوم يكون	أخا له يوم القلب

ووافت الجيوش كلها بطليوس فأنأخوا بظواهرها وخرج إليهم صاحبها المتوكل عمر بن محمد فلقبهم بما يجب من الأقوات والضيافات وبذل مجهوده؛ ثم جاءهم الخبر بشخص ابن فرذلند إليهم، ولما أزدلف بعضهم إلى بعض أذكى المعتمد عيونه فى محلات الصحراويين خوفًا عليهم من مكايده ابن فرذلند إذ هم غرباء لاعلم لهم بالبلاد وجعل يتولى ذلك بنفسه حتى قيل إن الرجل من الصحراويين كان يخرج عن طرق محلاتهم لبعض شأنه أو لقضاء حاجته فيجد ابن عباد بنفسه مطيقًا بالمحلة بعد ترتيب الكراديس من خيل على أفواه طرق محلاتهم فلا يكاد الخارج منهم عن المحلة يخطئ إذ ذاك من لقاء ابن عباد لكثرة تطوافه عليهم.

ثم كتب يوسف إلى ابن فرذلند يدعوهُ إلى الإسلام أو الجزية أو يأذن بحربه، فامتلاً غيظاً وعتاً وطغاً بما يدل على ضيقه، وقامت الأساقفة والرهبان فرفعوا صليبهم ونشروا أناجيلهم وخرجوا يتبايعون على الموت، ووعظ يوسف وابن عباد أصحابهما، وقام الفقهاء والعباد يعظون الناس ويحضونهم على الصبر ويحذرونهم الفرار، وجاءهم الطلائع بخبر أن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم وهو يوم الأربعاء، فأصبح المسلمون قد أخذوا مصافهم، فكع ابن فرذلند ورجع إلى أعمال الخديعة ورجع الناس إلى محلاتهم وباتوا ليلتهم. ثم أصبح يوم الخميس فأخذ ابن فرذلند في أعمال الحيلة فبعث لابن عباد يقول: غدا يوم الجمعة وهو عيدكم وبعده الأحد وهو عيدنا فليكن لقاءنا بينهما وهو يوم السبت. فعرف المعتمد بذلك يوسف فقال: نعم، فقال له المعتمد: هذه خديعة من ابن فرذلند إنما يريد غدر المسلمين فلا تطمئن إليه وليكن الناس على استعداد له طول يوم الجمعة كل النهار وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس بجميع المحلات خائفين من كيد العدو وبعد مضي جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي (وكان في محلة ابن عباد) فرحاً مسروراً يقول إنه رأى النبي ﷺ فبشره بالفتح والشهادة له في صبيحة غد، وتأهب ودعا ودهن رأسه وتطيب وانتهى ذلك إلى ابن عباد فبعث إلى يوسف فخبه بها تحقيقاً لما توقعه من غدر ابن فرذلند فحذروا أجمعين ولم ينفع ابن فرذلند ما حاوله من الغدر.

ثم جاء في الليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة ابن فرذلند وسمعا ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة. ثم تلاحق

بقية الطلائع محققين بتحريك ابن فرذلند، ثم جاءت الجواسيس من داخل محلة ابن فرذلند يقولون: استرقنا السمع الساعة فسمعنا ابن فرذلند يقول لأصحابه: ابن عباد مسعر هذه الحروب، وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوى بصائر فى الجهاد فهم غير عارفين بهذه البلاد وإنما قادهم ابن عباد، فاقصدوه واهجموا عليه وصبروا، فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده. ولا أرى ابن عباد يصبر لكم إن صدقتموه الجملة. وعند ذلك بعث ابن عباد كاتبه أبا بكر ابن القصيرة يطوى المحلات حتى جاء يوسف بن تاشفين فعرفه بجلية الأمر فقال له: قل له إنى سأقرب منك إن شاء الله تعالى. وأمر يوسف بعض قواده أن يمضى بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة النصارى فيضرمها ناراً ما دام ابن فرذلند مشغولاً مع ابن عباد.

وانصرف ابن القصيرة إلى المعتمد فلم يصله إلا وقد غشيته جنود ابن فرذلند، فصدمها ابن عباد صدمة قطعت أمله ولم يتكشف له، فحميت الحرب بينهما، ومال ابن فرذلند على المعتمد بجموعه وأحاطوا به من كل جهة فاستحر القتل فيهم، وصبر ابن عباد صبراً لم يعهد مثله لأحد، واستبطأ يوسف وهو يلاحظ طريقه، وعرضته الحرب واشتد البلاء وأبطأ عليه الصحراويون وساءت ظنون أصحابه وانكشف بعضهم وفيهم ابنه عبد الله وأثخن ابن عباد جراحات وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت إلى صدغيه وجرحت اليمنى يديه وطعن فى أحد جانبيه وعقرت تحته ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قدم له آخر وهو يقاسى حياض الموت ويضرب يميناً وشمالاً، وتذكر فى تلك الحالة ابنا له صغيراً كان مغرمًا به تركه بإشبيلية عليلاً اسمه العلاء وكنيته أبو هاشم فقال (متقارب):

أبا هاشم هشمته الشفار ولله صبرى لذاك الأوار
ذكرت شخيصك تحت العجاج فلم يثنى ذكره للفرار
ثم كان أول من وافى ابن عباد من قواد ابن تاشفين داود بن عائشة
وكان بطلاً شهماً فنفس بمجيئة عن ابن عباد، ثم أقبل يوسف بعد ذلك
وطبولة تصدع الجوى، فلما أبصره ابن فردلند وجهه أشكولته إليه وقصده بمعظم
جنوده وقد كان على حساب ذلك من أول النهار، وأعد له هذه الأشكولة
وهى معظم جنوده، فبادر إليه يوسف وصدّمهم بجمعهم فردهم إلى مركزهم
وانتظم به شمل ابن عباد ووجد ريح الظفر وتباشر بالنصر، ثم صدقوا جميعاً
الحملة فتزلزت الأرض بحوافر خيلهم، وأظلم النهار بالعجاج والغبار،
وخاضت الخيل فى الدماء، وصبر الفريقان صبراً عظيماً. ثم تراجع ابن عباد
إلى يوسف وحمل معه حملة نزل معها النصر. وتراجع المنهزمون من
أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفتتين، فصدقوا الحملة، فأنكشف
الطاغية، ومر هارباً منها، فلجأ إلى تل كلن يلى محلته فى نحو الخمسمائة
فارس كلهم مكسوم. وأباد القتل والأسر من عداهم من أصحابهم، وعمل
المسلمون بعد ذلك من رءوسهم صوامع يؤذنون عليها. وابن فردلند ينظر إلى
موضع الواقعة ومكان الهزيمة فلا يرى إلا نكالا محيطاً به وبأصحابه.

وكتب ابن عباد إلى ابنه بإشبيلية: كتابى هذا من المحلة يوم الجمعة
الموفى عشرين من رجب وقد أعز الله الدين، ونصر المسلمين وفتح لهم الفتح
المبين، وأذاق المشركين العذاب الأليم، والخطب الجسيم. فالحمد لله على ما
يسره وسنّاه من هذه الهزيمة العظيمة والمسرة الكبيرة هزيمة إذفونش أصلاه الله
نكال الجحيم ولا أعدمه الوبال العظيم، بعد إتيان النهب على محلاته،

واستئصال القتل فى جميع أبطاله وأجناده، وحماته وقواده. حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها. فله الحمد على جميل صنعه. ولم يصبنى بحمد الله تعالى إلا جراحات يسيرة ألت لكنها قرحت بعد ذلك. وغنمت وظفرت.

ولما فرغ يوسف من وقعة يوم الجمعة تواردت عليه أنباء من قبل السفن. فلم يجد معها بدءاً من سرعة الكرة. فانصرف إلى إشبيلية فأراح بظاهرها ثلاثة أيام، ونهض نحو بلاده. ومشى ابن عباد معه يوماً وليلة. فعزم عليه يوسف فى الرجوع. وكانت جراحاته تثعب، وتورم كلّم رأسه. فرجع وأمر ابنه بالمسير بين يديه إلى فرضه المجاز حتى يعبر البحر إلى بلده.

ولما دخل ابن عباد إشبيلية جلس الناس وهنئ بالفتح وقرأت القراء وقامت على رأسه الشعراء فأنشدوا. قال عبد الجليل بن وهب: حضرت ذلك اليوم وأعددت قصيدة أنشده إياها فقرأ القارئ: «إلا تنصروه فقد نصره الله» - الآية - فقات: بعداً لى ولشعرى. والله ما أبقت لى هذه الآية معنى أحضره إليه وأقوم به.

وللشعراء فى وقعة الزلافة وبلاء المعتمد فيها قول كثير.

لابن حمديس قصيدة أولها:

ليهنئ بنى الإسلام أن أبت سالماً	وغادرت انف الكفر بالذل راغماً
كشفت كروباً عن قلوب كأنما	وضعت عليها من هواك خواتماً
صبرت لحر الطعن والضرب ذائداً	عن الدين واستصغرت فيه العظاماً

رحمنك من وقع الصوارم والقنا فكان لنا فى حفظك الله راحما
وكم شجة فى حرّ وجهك لم يزل لك الحسن منها بالشجاعة واسما
ويقول فى يوسف بن تاشفين وجنده المرابطين:

نقمت على من آسفوك بيوسف وما زلت ممن خالف الحق ناقما
وأذنت عُمّار القفار بحربهم فيا قرب ما شقوا إليك الحضارما
بنو الحرب غتتهم لبان تُديّها ولم يستطيعوا منه إلا العلاقما
يحثّون للهيجاء جُردًا سلاهبًا ويُنضّون فى البيداء بزلا صلادمًا
إذا طعنوا بالسهمرية خلّتهم ضراغم تُغرى بالقلوب أراقما
وإن كرّ منهم ذو لثام مصمم غدا لقم الهيجاء بالسيف لاثما^(١)

ويختتم ابن حمديس القصيدة بهذه الأبيات:

حلّمّ مراجيحًا، وجدّتم أكارمًا وسُدّتم بهاليلًا، وصلّتم ضراغما
سكنتم قلوب العارفين محبة كما سكن الزهرُ الزكىّ الكمائمًا
نذرت نذورًا فاقترضانى قضاءها إيابك من يوم العروبة سالما^(٢)
ولما وجدتُ الوفّر أعور راحتي سجدت لربى ثم أصبحت ضائما

وللشاعر فى يوم الزلافة قصيدة أخرى مطلعها:

خلعت على بُنيّات الكروم محاسن ما خلعن على الرسوم

(١) المرابطون كانوا يتلثمون. ويسمون الملتهمين.

(٢) العروبة: يوم الجمعة. وكانت فيه وقعة الزلافة.

ويقول فيها:

فيا بن الصيد من لحم، ولحمٌ
إذا جادوا فأنواء العطايا
وأحرَمَ في يمينك مشرفي
ومعترك تلقى الفُنش فيه
تستر بالظلام وفرّ خوفًا
وضاق بيوسف ذى البأس بؤسى
وقد نهشته حيات العوالى
إلى أن يقول:

بدور مطالع الحسب الصميم
وإن حلمُوا فأتواذُ الحلوم
أدمتَ ببذله صَوْنَ الحريم
غريمًا مهلكًا نفس الغريم^(١)
كروع شق سامعتى ظليم
فمرّر عنده حلّو النعيم
سلوا ليل السليم عن السليم

ولما أن أتاك بقموم عاد
وقد صرّمت نار الحرب حتى
وثار بركض شُزيها قَتام
وأيما أصاب المعتمد فى موقعة الزلافة يقول الشاعر محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز^(٢):

أتيتَ بصرصر الريح العقيم
حكّت زفرائها قطع الجحيم
خلعن به الصريم على الضريم^(٢)

جليتَ إلى الأعادى أسدَ غاب
برائنها الأسنّة والصفاح

(١) الفُنش: ألفونس السادس قائد النصرارى فى هذه الموقعة.

(٢) الصريم: القطفة من الرمل منصرفة من سائره، يعنى أن الخيل ألقت من الغبار رمالاً على الرمال.

(٣) المغرب فى حلى المغرب ج ٢ - ترجمة الشاعر المذكور.

وقفت وموقفُ الهيجاءِ ضنك وفيه لباعك الرحب انفساح
والسنة الأسنة قائلات إذا ظهر المؤيد لا براح

وقالوا كفه جُرحت فقلنا أعاديه توافقها الجراح
وما أثر الجراحة ما رأيتم فتوهنها المناصل والرماح
ولكن فاض سيل الجود فيها فأمسى فى جوانبها انسياح
وقد صحت وسحت بالأمانى وفاض الجود منها والسماح

ويقول الفتح فى قلائد العقبان وهو يذكر يوم الزلافة:

«وكان للمعتمد رحمه الله فيه ظهور، وغناء مشهور، جلا متكاثف
عجاجة، وجلا الروم من غيطانه وفجاجة، بعد ما لقي حرّة، وسقى مرّة؛
وكلم العدو يده، وثلم عدده، وتخاذل فيه رؤساء الأندلس فلم يعمل لهم فيه
سنان، ولم يكحل جفونهم من قتامة عُثان، والمعتمد يلقي أستهم بلبانه
وتتنى الذوايل ولا يتنى من عنانه»^(١).

(١) القلائد ص ١٢.

بعد موقعة الزلاقة

فرح المسلمون بالانتصار، واستبشروا به أى استبشار. وحمدوا يوسف ابن تاشفين وأثنوا عليه، وبالغوا فى تعظيمه وتكريمه حتى عاد إلى بلاده.

واضطر المعتمد بن عباد كبير ملوك الطوائف أن يعود إلى استنجد يوسف مرة أخرى. فعبر يوسف البحر إلى الأندلس وعزم على خلع الطوائف جميعاً.

وكلام صاحب الروض المعطار لا يشعر بأن يوسف عاد إلى المغرب ثم عاود الأندلس، بل يوهم أن الحوادث تتابعت منذ وقعة الزلاقة حتى بلغت غايتها.

ويؤخذ من روايات عدة ومما تقتضيه الأحوال فى ذلك الحين أمور أسردها على النسق الآتى:

١ - تطلع ابن تاشفين إلى الأندلس حين اتسع ملكه وعظم سلطانه. ويؤكد هذا ما نقله صاحب نفح الطيب عن الروض المعطار أن ملوك الندلس سمعوا بتطلع يوسف إلى بلادهم قبل الاستنجد به. فأرسلوا إليه متوددين قائلين:

«أما بعد فإنك إن أعرضت عنا نسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز. وإن أجبننا داعيك نسبنا إلى عقل ولم تُنسب إلى وهن. وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتنا فاختر لنفسك أكرم نسبتيك. فأنك بالمحل الذى لا يجب أن تسبق فيه إلى مكرمة. وإن فى استبقائك ذوى البيوت ما شئت من دوام لأمرك والسلام».

فأجاب يوسف :

«سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته تحية من سالمكم وسلمت عليكم . وإنكم مما فى أيديكم من الملك فى أوسع إباحة ، مخصوصون منا بأكرم إيثار وسماحة . فاستديموا وفاءنا بوفائكم . واستصلحوا إخواننا بإصلاح إخوانكم . والله ولى التوفيق لنا ولكم والسلام» .

٢ - وكره ابن تاشفين وجنده ما سمعوا من ترف ملوك الأندلس ولهوهم وما رأوا من بذخهم حين حلوا ببلادهم :

يقول المقرئ فى نفح الطيب بعد ذكر نزول ابن تاشفين فى إشبيلية بعد موقعة الزلاقة وما رآه فى المدينة من الأبهة والرفاهية والترف .

«وكان مع ابن تاشفين أصحاب له ينبهونه على حسن تلك الحال وتأملها وما هى عليه من النعمة والتراف . ويغرونه باتخاذ مثلها ويقولون له إن فائدة الملك قطع العيش فيه بالتنعم واللذة كما هو المعتمد وأصحابه . فأنكر يوسف هذا وقال :

«الذى يلوح لى من أمر هذا الرجل - يعنى المعتمد - أنه مضىع لما فى يديه من الملك . لأن هذه الأموال الكثيرة التى تصرف فى هذه الأحوال لا بد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبداً . فأخذه بالظلم وإخراجه فى هذه الترهات من أفحش الاستهتار . ومن كانت همته فى هذا الحد من التصرف فيما لا يعدو الأجوفين متى يستجدّ همة فى ضبط بلاده وحفظها رعيته والتوفير لمصالحها»^(١) .

(١) نفح الطيب الجزء السادس ص ١٠٩ .

ويقول المقرئ:

ثم إن يوسف بن تاشفين سأل عن أحوال المعتمد في لذاته - هل تختلف فتتقص عما هي عليه في بعض الأوقات؟ فقبل له: بل كل زمانه على هذا. فقال: أفكل أصحابه وأنصاره على عدوه، ومنجديه على الملك، ينال حظناً من ذلك؟ فقالوا: لا. قال: فكيف ترون رضاهم عنه؟ فقالوا: لا رضا منهم عنه. فأطرق وسكت. وأقام عند المعتمد على تلك الحال أياماً.

وفي نفح الطيب^(١):

«ولما عزم السلطان يوسف بن تاشفين إلى بلاده ترك الأمير سير بن أبي بكر أحد قواده قواده المشاهير، وترك معه جيشاً يرسم غزو الفرنج. فاستراح الأمير المذكور أياماً قلائل. ودخل بلاد الأذفونش، وأطلق الغارة، ونهب وسبى وفتح الحصون المنيعه والمعازل الصعبة العويصة، وتوغل في البلاد، وحصل أموالاً وذخائر عظيمة. ورتب رجالاً وفرساناً في جميع ما أخذه. وأرسل للسلطان يوسف جميع ما حصله. وكتب له يعرفه أن الجيوش بالشغور مقيمة على مكايده العدو، وملازمة الحرب والقتال، في أضيق العيش وأنكداه وملوك الندلس في بلادهم وأهليهم في أرغد عيش وأطيبه وسأله مرسومه...».

ويقول المراكشي إن يوسف أرسل جنداً للمرابطة في الشغور وأراد أن يكونوا عدة له حين يعزم على أخذ الأندلس.

هذا الكلام وشبهه إعراب صادق عما تقضى به تلك الأحداث والأحوال، فهؤلاء الصحراويون المسلمون الخلق قد أطبَّتْهم تلك البلاد

(١) نفح الطيب ج٢ ص ١٠٤.

الخصبة النضرة وأسخطتهم عيشة المترفين من أهل الأندلس، وافتراق كلمتهم، والقوارعُ تنتابهم والعدو بين الحين والحين يجوسُ خلال ديارهم، ويأخذ ما يشاء من نسلهم وحرثهم.

لهذا عزم ابن تاشفين على خلع ملوك الطوائف وتديير أمر الأندلس وأراد أن يستوثق من حكم الشرع فيما هم به. فاستفتى العلماء فأفتوه بجواز خلع هؤلاء الملوك المترفين جمعاً لكلمة المسلمين وتقوية لهم على الجهاد. يقول صاحب نفح الطيب: وحكى ابن خلدون أن علماء الأندلس أفتوا ابن تاشفين بجواز خلع المعتمد وغيره من ملوك الطوائف وقتالهم إن امتنعوا. ويقول الأستاذ بلنثيا^(١):

«وكان الفقهاء يعتقدون أن سبب اضمحلال البلاد إنما هو انصراف أمراء الطوائف عن الذين وحدوده. فأملوا لهذا أن تصلح الحال إذا استعانوا بالمرابطين. وعارض الأمراء في الاستعانة بهم ما استطاعوا المعارضة. إذ أنهم توجسوا شراً من مزاحمتهم لهم على السلطان في الأندلس ولكن الغالب أن جمهور الناس ألحوا في استقدام المرابطين. وتوجه بالفعل وفد مؤلف من قضاة بطليوس وغرناطة وقرطبة ووزير إشبيلية أبى بكر بن زيدون إلى إفريقية وقابلوا يوسف بن تاشفين واستصرخوه لنجدة الأندلس. فاجابهم إلى ما طلبوه».

وعبر يوسف إلى إسبانيا ثلاث مرات^(٢) وأخذت تنعقد حوله وهو

(١) الفكر الأندلسي - ترجمة الدكتور حسين مؤنس ص ٤٨.

(٢) المرة الأولى سنة ٤٧٩ سنة الزلافة، والثانية في بعض الروايات سنة ٤٨١، والثالثة سنة

٤٨٤ سنة خلع ملوك الطوائف.

منصرف إلى الحرب في الأندلس شباك تدبير في وقت واحد. الأول دبره ملوك الطوائف للإيقاع به وأذاه. وعقد أطراف الثانی الفقهاء ورموا من ورائه إلى إسلام الأندلس جملة إلى يوسف بن تاشفين. واجتهد الفقهاء في ذلك. وسعوا بأمراء الطوائف وتكلموا مع الأمير في خلعهم. وانتهى الأمر بالاعتناق برأيهم، وعقد النية على استئزال ملوك الطوائف الأندلسيين عن عروشهم، إذ تبين عجزهم عن مقاومة النصارى. ووجد أن جمهوراً كبيراً يؤيده في هذا العمل، فاستصدر من الفقهاء فتوى بعدم صلاحية ملوك الطوائف للحكم وضرورة عزلهم.

ولم يلبث الأندلس جميعاً أن دخل في دولة المرابطين.

أقول ليس حقاً أن ملوك الطوائف دبّروا للإيقاع بيوسف أول الأمر. فهم استنجدوه واستنصروه وفرحوا بنصرته، وتمنوا أن تدوم المودة بينه وبينهم إلى أن عزم على خلعهم.

خلع ملوك الطوائف

روى ابن خلكان بعد ذكر موقعة الزلاقة أن ابن تاشفين عاد في العام الثاني إلى الأندلس وخرج إليه المعتمد وحاصر بعض حصون الفرنج فلم يقدر عليه فرحل عنه. وعبر على غرناطة فخرج إليه صاحبها عبد الله بن بلكين فغدر به يوسف ودخل البلد ودخل قصر عبد الله فوجد فيه من الأموال والذخائر ما لا يحصى ولا يعدّ، وأنه عاد إلى مراكش وفي نيته أن يستولى على الأندلس، وأنه جهز الجيوش وسار إلى سبتة فأرسل قائده سير بن أبي بكر ففعل ما فعل الملوك الطوائف.

وليست الروايات وأضحة في عود يوسف إلى الأندلس. ولا يتفق الذين رووا أنه عاد إليها على سنة هذه العودة. وليس هذا الخلاف ذا خطر فيما نحن بصدده من سيرة المعتمد بن عباد.

وفى نفح الطيب أن سير بن أبي بكر قائد المرابطين فى الأندلس أرسل إلى السلطان يوسف يخبره بإيثار ملوك الطوائف الدعة واللهم واحتمال المرابطين العناء فى جهاد العدو، وسأله رأيه فى هؤلاء الملوك، فكتب إليه أن يأمرهم بالنقلة والرحيل إلى أرض العدو، فمن فعل فذاك، ومن أبى فحاصره وقاتله ولا تنفس عليه. ومما قاله: «ولتبدأ بمن والى الثغور ولا تتعرض للمعتمد بن عباد إلا بعد استيلائك على البلاد، وكل بلد أخذته فول فيه أميراً من عساكرك».

شرع قائد المرابطين ينزل الملوك من معاقلمهم ويخرجهم من ديارهم طوعاً أو كرهاً حتى أдал منهم جميعاً. فكتب إلى ابن تاشفين يسأله أمره فى ابن عباد فأمره أن يعرض عليه النقلة إلى بر العدو فى أهله وعشيرته. فإن أبى فليقاتله ويأخذه قسراً كما فعل بنظرائه.

وهذا نسق الحوادث كما روى صاحب نفح الطيب^(١):

«فأول ما ابتدأ به من ملوك الأندلس بنود هود، وكانوا بروطة - وهى قلعة منيعة من عاصمات الذرى. وماؤها ينبع من أعلاها. وفيها من الأقوات والذخائر المختلفات ما لا تفنيه الأزمان. فحاصره فلم يقدر عليها. ورحل عنها. وجند أجناداً على هيئة الفرنج وزبهم. وأمرهم أن يقصدوها ويغيروا عليها. وكمن هو وأصحابه بقرب منها.

(١) ج٦ ص ١٠٤.

فلما رأهم أهل القلعة استضعفوهم فتنزلوا إليهم، ومعهم صاحب القلعة، فخرج عليه سير المذكور^(١) وقبضه باليد وتسلم الحصن.

ثم نازل بنى طاهر بشرق الأندلس، فأسلموا له البلاد ولحقوا ببر العدو، ثم نازل بنى صمادح بالمرية، ولها قلعة حصينة فحاصروهم وضيق بهم. ولما علم ابن صمادح الغلب أسف ومات غمًا. فأخذ القلعة واستولى على المرية وجميع أعمالها.

ثم قصد بطليوس، وكان بها المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس المتقدم ذكره. فحاصروه وأخذوه واستولى على جميع أعماله وماله.

ولم يبق له إلا المعتمد بن عباد فكتب للسلطان يوسف يعرفه بما فعل ويسأله مرسومه فى ابن عباد. فكتب إليه يأمره أن يعرض عليه النقلة لبر العدو بجميع الأهل والعشيرة. فإن رضى وإلا فحاصروه وخذه وأرسل به كسائر أصحابه.

فواجهه وعرفه بما رسم به السلطان يوسف، وسأله الجواب، فلم يجب بنفى ولا إثبات.

ثم إنه نازل إشبيلية وحاصره بها وألح عليه. فأقام الحصار شهراً ودخل البلد قهراً.

ويقول المراكشى فى المعجب إن الفتنة بدأت فى شوال سنة ٤٨٣هـ. حين أخذ المرابطون جزيرة طريف دون مقدمة ظاهرة - ثم زحفوا إلى قرطبة فدافع عنها المأمون بن المعتمد إلى أن قتل فى صفر سنة ٤٨٤هـ.

(١) سير بن إبراهيم قائد جيش المرابطين.

وسياتى أن أخذ إشبيلية كان فى رجب سنة ٤٨٤هـ. ويأتى كذلك فى أخبار الراضى بن المعتمد أن جيشاً توجه إليه وهو فى رنّدة فهزمه وقتله. وكان هذا بعد الاستيلاء على إشبيلية.

لم أجد فيما أطلعت فيه من كتب، تفصيل ما كان بين ابن عباد وابن تاشفين من مراسلة ثم قطيعة وعداوة وحرب.

ويتبين مما نقله صاحب نفح الطيب عن الفتح بن خاقان وابن اللبانة أن المعتمد حوَّصر فى إشبيلية وأن بعض رجال دولته مالوا مع عدوه وكادوا له وخانوه. ولم يُفجأ المعتمد بجيوش ابن تاشفين فقد بدءوا قبله بملوك الطوائف وبلغ المعتمد ما جرى عليهم. ثم أخذوا قرطبة وقتلوا ابنه المأمون. ولا نصدق ما سجع به الفتح بن خاقان فى قوله:

«فأولته جيوش أمير المسلمين ومحلاته وظاهرته فساطيطه ومظلاته، بعد ما نشرت حصونه وقلاعته... وهو ساه بروض ونسيم، لاه براح ومحيا وسيم، زاه بفتاة تنادمه، ناه عن هدم أنس هو هادمه».

وقوله: «حتى دخل البلد من واديه، وبدت من المكروه بواديه، وكثر عليه الدهر بعواديته، وهو مستمسك بعرى ملذاته، منغمس فيها بذاته، ملقى بين جواريه، مغتر بدوائع ملكه وعواريه»^(١).

لا نصدق أن المعتمد أحرق به الخطر وهو فى لعبه ولهوه، فإن عاقلا لا يفعل هذا، فضلا عن المعتمد الهمام الحارم الشجاع بطل موقعة الزلاقة الذى أحس خطر الفرنج فألب عليهم ملوك الأندلس واستنجد المرابطين من المغرب.

(١) القلائد ترجمة المعتمد.

لا يصدق أن المعتمد بن عباد أحيط به وهو بين الخمر والنساء، ولا
ريب أن الرجل دافع عن ملكه وسع شجاعته وقدرته، حتى ألجئ إلى مدينته
ثم إلى قصره. وقد خانته رجاله فسقط في يده، وحسب أنه يستعصم في
قصره إلى أن يحتال لأمره فلحقته الخيانة فيه، فخرج مُعجلاً عن درعه يلقي
العدو في غلالة.

لم يكن المعتمد كما صورته أسجاع الفتح بن خاقان، بل كان كما قال
فيه ابن حمديس:

جاهدت في الرحمن حق جهاده وجرى الملوك كما أردت فقصروا
فببيت ناجودٌ وعودٌ حولهم وببيت حولك شوذب وسنور
وتفوح غالية بهم وذرة ريرة وهما دم في بردتيك وعشير
وهذا يذكر بقول أبي الطيب في سيف الدولة وملوك مصر والعراق في
عصره:

ما الذي عنده تدار المنايا كالذي عنده تدار الشمول
وقوله:

ألهي الممالك عن فتح قفلت به شرب المدامة والأوتار والنغم
وكذلك يقول ابن حمديس في المعتمد:

مقيم بأرض الروع حيث سماؤها تمور عليه من مثار قساطله
كان مقام الحرب أشهى ربوعه إليه، وببيض الهند أدنى قبائله
والمعتمد يقول في أبيات أرسلها إلى ابن حمديس حين زاره في
أغمات:

ولو كنتُ ممن يشرب الخمر كنتها إذا نزعْتُ نفسى إلى لذة الخمر
فما أحسب المعتمد كان من اللهو والترف بحيث يصفه الفتح بن خاقان.
وروى صاحب نفع الطيب أنه ما جهز بشرب الخمر منذ ولى الملك.

ونختار فى حصار المعتمد وأسرهِ ما كتبه شاعره ابن اللبانة فى كتابه نظم
السلوك فى مواعظ الملوك. ويدل كلامه أنه كان شاهد الواقعة حاضر النكبة:

«إن طائفة من أصحاب المعتمد خامرت عليه، فأعلم باعتقادها، وكُشِفَ
له عن مرادها، وحُضَّ على هتك حُرْمِها، وأغرى بسفك دمها. فأبى ذلك
مجده الأثيل، ومذهبه الجميل، وما خصه الله تعالى به من حسن اليقين،
وصحة الدين إلى أن أمكنتهم الغرة فانتصروا ببغاث مستنسر وقاموا بجمع غير
مستبصر. فبرز من قصره متلافياً لأمره، عليه غلالة ترف على جسده، وسيفه
يتلظى فى يده...».

يوافق ابن اللبانة غيره على أن جماعة من أصحاب المعتمد خائنه وأنه
فوجئ فى قصره فخرج فى غير عدة. ولعل المعتمد لم يعرض لهذه الجماعة
بشر حين نعى أمرها إليه، خيفة اختلاف الكلمة وافتراق الجماعة فى وقت
الشدة.

ولا نجد فى كلام ابن اللبانة ذكر لهو المعتمد وغفلته والنذر تحيط به.
وهو قول باطل سجع به الفتح كسجع الكهان.

ثم يقول ابن اللبانة:

«فلقى على باب من أبواب المدينة فارساً مشهوراً بنجدة، فرماه الفارس
برمح التوى على غلالته، وعصمه الله تعالى منه. وصب هو سيفه على عاتق

الفارس فشقه إلى أضلاعه فخر صريعاً سريعاً. فرأيت القائمين عندما تسنموا الأسوار تساقطوا منها، وبعدما أمسكوا الأبواب تخلوا عنها، وأخذوا على غير طريق، وهوت بهم ريح الهيبة في مكان سحيق. فظننا أن البلد من أقدائه قد صفا، وثوب العصمة علينا قد ضفا، إلى أن كان يوم الأحد الحادى والعشرون من شهر رجب^(١)، فعظم الخطب فى الأمر الواقع واتسع الخرق على الواقع. ودخل البلد من جهة واديه، وأصيب حاضره بعادية بادييه، بعد أن ظهر من دفاع المعتمد وبأسه، وتراميه على الموت بنفسهن ما لا مزيد عليه، ولا انتهى خلق إليه. فشنت الغارة فى البلد، ولم يبق فيه على سبد ولا لبد. وخرج الناس من منازلهم يسترون عوراتهم بأناملهم. وكشفت وجوه المخدرات العذارى، ورأيت الناس سكارى وما هم بسكارى. ورحل بالمعتمد وآله، بعد استئصال جميع ماله، لم يصحب معه بلغة زاد، ولا بغية مراد. فأمضيت عزيزتى فى اتباعه فوصلت إليه بأغمات». اهـ.

ويوافق الفتح ابن اللبانة على غدر جماعة من أصحاب المعتمد وعلى أن أعداءه فجئوه داخلين من أحد أبواب القصر، فخرج إليهم على غير عدة فهزمهم وأغلق الباب واعتصم بالقصر. ويسمى الباب باب الفرج ويقول إن الداخلين كانوا من المرابطين.

وهذه طائفة من أسجاع الفتح فى هذا الشأن:

«وحين اشتد حصاره وعجز عن المدافعة أنصاره، ودلس عليه ولاته، وكثرت أداؤه وعلاته، فتح باب الفرج وقبذ لفح شواظ الهرج. فدخلت عليه

(١) يروى ابن خلكان أن المرابطين هجموا على إشبيلية يوم الأحد العشرين من رجب سنة ٤٨٤هـ ويقول المراكشى فى الثلاثاء منتصف رجب كان الهجوم الأول، وكان الهجوم الثانى فى ٢٦ رجب.

من الموابطين زمرة، واشتعلت من التغلب جمرة، تأجج اضطرامها، وسهل بها إيقاد الفتنة وإضرارها. وعندما سقط الخبر عليه خرج حاسراً من مفاضته، جامعاً كالمهر قبل رياضته. فلحق أوائلهم عند الباب المذكور، وقد انتشروا في جنباته، وظهروا على البلد من أكثر جهاته، وسسفه في يده يتلمظ للطللى والهامن ويعد بانفراج ذلك الاستبهام. فرماه أحد الداخلين برمح تخطاه وجاور مطاه. فبادره بضربة أذهبت نفسه وأغربت شمسه. ولقى ثانياً فضربه وقصمه وخاض حشا ذلك الداء وحسمه. فأجلوا عنه وولوا فراراً منه. فأمر بالباب فسد وبني منه ما هد.

ثم انصرف وقد أراح نفسه وشفأها وأبعد الله عنه الملامة ونفاها. وفي ذلك يقول عند الملامة ونفاها. وفي ذلك يقول عند ما خلع، وأودع منك المكروه ما أودع:

إن يسلب القوم العدى	ملكى وتسلمنى الجموع
فالقلب بين ضلوعه	لم تسلم القلب الضلوع
قد رمت يوم نزالهم	ألا تحمصنى الدروع
وبرزت ليس سوى القميص	من الحشا شىء دفوع
أجلى تأخر لم يكن	بهوى ذلى والخضوع
ما سرت قط إلى القتال	وكان من أملى الرجوع
شيم الألى أنا منهم	والأصل تتبعه الفروع

ويؤخذ من كلام الفتح فيما بعد أن المغيرين دخلوا البلد مرة أخرى من الوادى، أى من جهة نهر إشبيلية المسمى الوادى الكبير، وأن المعتمد استبسل

فى الحرب حتى هزم المغيرين وألجأهم إلى النهر فغرق فيه من غرق. فالبلد دخل من أحد الأبواب فحارب المعتمد حتى رد الداخلين وسد الباب، ثم دخل من الوادى فرد المعتمد أعداءه كذلك. يقول الفتح بعد ذكر الواقعة الثانية:

«ثم انصرف وقد أيقن بانتهاء حاله، وذهب ملكه وارتحاله. وعاد إلى القصر واستمسك فيه يومه وليلته مانعاً لحوزته، دافعاً للذل عن عزتهز وقد عزم على أفطع أمر، قائلاً بيدي لا بيد عمرو. ثم صرفه تقاه عما نواه (يعنى أنه هم بالانتحار) فنزل من القصر بالقصر إلى قبضة الأسر. فقيد للحين وحن له يوم شر ما ظن أنه يحين...

ثم جمع هو وأهله وحملتهم الجوارى المنشآت، وضمتهم جوانحها كأنهم أموات، بعد ما ضاق منهم القصر، وراق منهم العصر، والناس قد حشروا بصفتي الوادى وبكوا بدموع كالغوادى. فساروا والنوح يحدوهم، والبوح باللوعة لا يعدوهم».

ويقول المراكشى: إن دخول جماعة من الباب ودفع المعتمد إياهم كان الثلاثاء منتصف رجب. ويقول إن الجيوش دهمت المدينة عصر ذلك اليوم من البر ومن الوادى، ودام القتال أياماً إلى أن جاء قائد المرابطين سير بن أبى بكر بن تاشفين، بعساكر متظاهرة، وحشود منك الرعية متوافرة. والناس فى خلال هذه الأيام قد خامرهم الجزع، وخالط قلوبهم الهلع. يقطعون السبل سباحة، ويعبرون النهر سياحة. ويتولجون مجارى الأقدار، ويترامون من شرفات الأسوار حرصاً على الحياة. والموفون بالعهد المقيمون على صريح الود ثابتون إلى أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين ليلة خلت من رجب من السنة

المذكورة. وهذا يوم الكائنة العظمى والطامة الكبرى. فيه حم الأمر الواقع،
واتسع الخرق على الراقع».

ويستمر المراكشى بعد فى وصفه ناقلاً كلام الفتح الذى تقدم.
ثم يقول:

«وأجبر على مخاطبة ابنه المعتد بالله والراضى باللهز وكانا بمعتلين من
معاقل الأندلس المشهورة لو شاء أن يمتنعاً بها لم يصل أحد إليهما. أحد
الحصنين يسمى رندة والآخر مارتلة. فكتب رحمه الله وكتبت السيدة الكبرى
أُمهما مستعطفين مسترحمين معلمين أن دم الكل منهم مسترهن بثبوتهما.
فأنفا من الذل، وأبيا وضع يديهما فى يد أحد من الناس بعد أبيهما. ثم
عطفتها عواطف الرحمة، ونظراً فى حقوق أبويهما المقتترنة بحق الله عز
وجل. فتمسك كل منهما بدينه ونبذ ديناه. ونزلا من الحصنين بعد عهود
مبرمة ومواثيق محكمة. فأما المعتد بالله فإن القائد الواصل إليه قبض عند
نزوله على كل ما كان يملكه. وأما الراضى بالله فعند خروجه من قصره قتل
غيلة وأخفى جسده».

والأبيات التى رواها الفتح فيما تقدم يزيد عليها المراكشى فى روايته
ثلاثة أبيات قبلها:

لما تماسكت الدموع	ونهنه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة	فليبد منك لهم خضوع
والذ من طعم الخضوع	على فمى السم النقيع

ووقف الشاعر الوفي أبو بكر بن اللبانة الذي أخلص لصاحبه في
محنته ، كما نعم بعباياه في دولته . وقف الشاعر الوفي يرى القيامة ويشهد
الحشر فقال :

تبكى السماء بمزن رائج غاد	على البهاليل من أبناء عباد
على الجبال التي هدت قواعدها	وكانت الأرض منها ذات أوتاد
عريسة دخلتها النائبات على	أساود لهم فيها وآساد
وكعبة كانت الآمال تخدمها	فاليوم لا عاكف فيها ولا باد
يا ضيف أقفر بيت المكرمات فخذ	في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد
ويا مؤمل واديهم لتسكنه	خف القطين وجف الزرع بالواد
وأنت يا فارس الخيل التي جعلت	تختال في عدد منهم وأعداد
ألق السلاح وخل المشرفي فقد	أصبحت في لهوات الضيغم العادي
إلى أن يقول :	

نسبت إلا غداة النهر كونهم	في المنشآت كأموات بالحاد
والناس قد ملئوا العبرين واعتبروا	من لؤلؤ طافيات فوق أزياد
خط القناع فلم تستر مخدرة	ومزقت أوجه تمزيق أبراد
حان الوداع فضجت كل صارخة	وصارخ من مفداة ومن فاد
سارت سفائنهم والنوح يصحبها	كأنها إبل يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمع وكم حملت	تلك القطائع من قطعات أكباد

سارت السفن بالمعتمد وآله وأتباعه فى نهر الوادى الكبير ثم فى بحر
الظلمات حتى أرسى على ساحل المغرب.

ولما خرج من السفين الأمير الجواد الأبى الصنديد، اجتمع إليه السؤال
يستجدون ويلحفون. جاءه الحصرى الشاعر فرفع إليها أشعاراً قديمة كان قد
مدحه بها، وقصيدة استجدها، يقول المراكشى فى كتاب المعجب:

«ولم يكن عند المعتمد فى ذلك اليوم ما زود به فيما بلغنى أكثر من ستة
وثلاثين مثقالاً. فطبع عليها، وكتب معها بقطعة شعر يعتذر من قلتها سقطت
من حفظى، ووجه بها إليه. فلم يجاوبه على القطعة على سهولة الشعر على
خاطره، وخفته عليه - كان هذا الرجل، أعنى الحصرى الأعمى، أسرع
الناس فى الشعر خاطراً إلا أنه كان قليل الجيد منه - فحركه المعتمد على الله
على الجواب بقطعة أولها:

قل من قد جمع العلم وما أحصى صوابه
كان فى الصرة شعر فتنظرنا جوابه
قد أثبتناك فهلاً جلب الشعر ثوابه

ولما اتصل بزعائف الشعراء وملحفى أهل الكدية ما صنع المعتمد رحمة
الله مع الحصرى تعرضوا له بكل طريقن وقصدوه من كل فج عميق. فقال
فى ذلك رحمه الله:

شعراء طنجة كلهم والمغرب ذهبوا من الإغراب أبعد مذهب
سألوا العسير من الأسير وإنه بسؤالهم لأحق منهم فاعجب
لولا الحياء وعزة لخمىة طى الحشا ساواهم فى المطلب

قد كان إن سئل الندى يجزل وإن نادى الصريخ بيباه اركب يركب
وأقام المعتمد بطنجة أياماً على الحال التي تقدم ذكرها ثم انتقل إلى
مدينة مكناسة فأقام بها شهراً إلى أن نفذ الأمر بتسييرهم إلى مدينة أغمات.
وفى ديوان المعتمد أنه عتب على ابنه الرشيد عتباً شديداً وهماً في
الطريق من مكناسة إلى أغمات فكتب الرشيد إليه:

يا حليف الندى ورب السماح وحبیب النفوس والأرواح
من تمام النعمى على التماحي لمحة من جبینك الوضاح
قد غنينا ببشره وسناه عن ضياء الصباح والمصباح
فأجاب المعتمد:

كنت حلف الندى ورب السماح وحبیب النفوس والأرواح
إذ يميني للبلذل يوم العطايا ولقبض الأرواح يوم الكفاح
شمالي لقبض كل عنان يقحم الخيل في مجال الرماح
وأنا اليوم رهن أسر وفقر مستباح الحمى مهيض الجناح
لا أجيب الصريخ إن فزع الناس ولا المعتفين يوم السماح^(١)
عاد بشرى الذي عهدت عبوسا شغلتنى الأشجان عن أفراحي
فالتماحي إلى العيون كربه ولقد كان ترفة اللماح

(١) فى الديوان: إن حضر الناس وأحسبها تحريقاً.

المعتمد في أغمات

ومدينة أغمات كما يقول ياقوت:

«مدينتان متقابلتان... كثيرة الخير... وليس بالمغرب فيما زعموا بلد
أجمع لأصناف من الخيرات ولا أكثر ناحية ولا أوفر حظًا ولا خصبًا منها
تجمع بين فواكه الصرود والجروم^(١)...».

وبين مدينة أغمات ومراكش ثلاثة فراسخ وهي في سفح جبل هناك.
كانت أغمات كبرى مدن الإقليم قبل إنشاء مدينة مراكش. وفقدت مكانتها
وقل عمرانها حينما أنشئت مراكش سنة ٤٥٤هـ.

وقد استولى عليها المرابطون سنة ٤٤٩هـ. ونفوا إليها المعتمد سنة
٤٨٤هـ. وبها أطلال مدرسة قديمة ومقابر كثيرة - وقبر المعتمد هناك.
وهي اليوم مزارع وبساتين واسعة كثيرة الثمار، عذبة المياه وارفة
الظلال.

بقي البطل ابن عباد في أغمات أربع سنوات حتى أنقذته المنية من هذه
البلية. وقد ضيق عليه وأثقلت القيود على رجله حين ثار ابنه عبد الجبار في
الأندلس. وقد جزع المعتمد لهذا وتوقع أن يؤخذ بجريرة ابنه أو يخشى فراره
من معتقله.

(١) الصرود والجروم الحر والبرد. الأولى جمع صرد والثانية جمع جرم. وكلا اللفظين
فارسي معرب.

ويقول الفتح:

«وقال لى من أثقه: لما ثار ابنه حيث ثار وأثار من حقد أمير المسلمين عليه ما أثار جزع جزعاً مفرطاً وعلم أنه قد صار فى أنشودة الشر متورطاً، وجعل يشتكى من فعله، ويتكلم، ويتوجع منه ويتألم، ويقول عرض بى للمحن، ورضى لى أن أمتحن. ووالله ما أبكى إلا انكشاف من أتخلفه بعدى ويتحيفه بعدى»^(١).

ويقول الفتح:

«وأقام بالعدوة برهة لا يروع له سرب وإن لم يكن آمناً، ولا يشور له كرب وإن كان فى ضلوعه كامناً، إلى أن ثار أحد بنيهِ بأركش».

وله فى أسره وبؤسه وعض الأدهم فى رجليه ومنظر بناته فى الأطمار عليهن الذلة بعد العزة وهن يغزلن ليحصلن القوت - له فى هذه المرائى الأليمة والأحوال الحزينة، أشعار ترقق القلوب القاسية وتسيل العيون الجامدة. وإليك طرقاً منها:

قال يذكر قصوره التى أشاد بناءها وافتن فى تزيينها، وعمر بالسرور أرجاءها، وحمد فى ظل النعيم صباحها ومساءها:

غريب بأرض المغربين أسير	سيبكي عليه منبر وسرير
وتنديه البيض الصوارم والقنا	وينهل دمع بينهن غزير
مضى زمن والملك مستأنس به	وأصبح منه اليوم وهو نفور
برأى من الدهر المضلل فاسد	متى صلحت للصالحين دهور

(١) نفح الطيب جه.

أذل بنى ماء السماء زمانهم
 فيا ليت شعرى هل أبیتن ليلة
 بمنبتسة الزيتون مورقة العلا
 بزاهرها السامى الذرى جاده الحيا
 ويلحظنا الزاهى وسعد سعوده
 تراه عسیراً لا یسیراً مناله
 وقال:

بكى المبارك فى إثر ابن عباد
 بكت ثرياه لا غمت كواكبها
 بكى الوحيد، بكى الزاهى وقبته
 ودخل عليه بناته يوم عيد وقد حالت حالهن وذوت نضرتهن وكن قد
 اضطرن إلى الغزل لتحصيل قوتهن. وقيل غزلن لصاحب شرطة كان فى
 خدمة أبيهن: عيد بأية حال عدت يا عبد - فقال المعتمد:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً
 ترى بناتك فى الأطمار جائعة
 برزن نحوك للتسليم خاشعة
 يطأن فى الطين والأقدام حافية
 فساءك العيد فى أغمات مأسورا
 يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
 أبصارهن حسيرات مكاسيرا
 كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا

(١) يتسبب المعتمد إلى لحم قوم المناذرة ملوك الحيرة وكان من ملوكهم ماء السماء.

(٢) الزاهر والزاهى والثريا والمسعد قصور فى إشبيلية.

لا خد إلا ويشكو الحذب ظاهره
قد كان دهركن إن تأمرهن ممتلاً
من بات بعدك فى ملك يسر به
ودخل عليه ابنه أبو هاشم، هذا الصبى الذى ذكره حين احتدام القتال
فى موقعة الزلاقة، فقال كما تقدم:

أبا هاشم هشمتى الشفار
ذكرت شخيصك تحت العجاج
فله صبرى لذاك الأورار
فلم يثنى ذكره للفرار
دخل أبو هاشم على أبيه أسيراً سجيناً «والقيود قد عضت بساقيه عض
الأسود، والتوت عليه التواء الأساود السود» فقال:

قيدى! أما تعلمنى مسلماً
دمى شراب لك واللحم قد
أبيت أن تشفق أو ترحمما
يصررنى فيك أبو هاشم
أكلته. لا تهشم الأعظمما
ارحم طفيلًا طائشاً لبه
فينثى والقلب قد هشما
وارحم أخيات له مثله
لم يخش أن يأتيك مسترحما
منهن منك يفهم شيئاً فقد
جرعتهن السم والعلقما
والغير لا يفهمط شيئاً فما
خفنا عليه للبكاء العمى
يفتح إلا لرضاع فما

ومما قاله فى التوجع من أسره وقيده:

غثك أغماتية الألمان
ثقلت على الأرواح والأبدان
قد كان كالشعبان رمحك فى الورى
فغدا عليك القيد كالشعبان

متمرداً يحميك كل تمرد متعطفاً لا رحمة للعانى
قلبي إلى الرحمن يشكو بثه ما خاب من يشكو إلى الرحمن
وقال:

أنباء أسرك قد طبقن آفاتا بل قد عممن جهات الأرض إقلاقا
فأحرق الفجع أكباداً وأفئدة وأغرق الدمع آماقا وأحداقا
أنى غلبت وكنت الدهر ذا غلب للغالبين وللسباق سباقا
قلت: الخطوب أذاقتنى طوارقها وكان غريبى إلا الأعداء طراقا
متى رأيت صروف الدهر تاركة إذا انبرت، لذوى الأخطار أرماقا
ومر عليه سرب قطا وهو فى معتقله. وأنقل هنا كلمات الفتح بن
خاقان فى تصوير هذه الحال:

«ومر عليه فى موضع اعتقاله سرب قطا لم يقلق لها جناح ولا تعلق بها
من الأيام جناح. ولا عاقها عن أفراخها الأشراك، ولا أعوزها البشام ولا
الأراك، وهى تمرح فى الجو وتسرح فى مواقع النور. فتتكبد بما هو فيه من
الوثاق وما دون أحبته من الرقباء والأغلاق، وما يقاسيه من كبله، ويعانيه من
وجده وخبله، وفكر فى بناته وافتقارهن إلى نعيم عهدنه، وحبور حضرته
وشهدنه، فقال:

بكيت إلى سرب القطا إذ مررن بى سوارح لا سجن يعوق ولا كبل
ولم تك، والله المعيد، خسادة ولكن حنيناً أن شكلى لها شكل
فأسرح لا شملى صديعن ولا الحشا وجيع، ولا عينى يكيهما ثكل

هنيئاً لها، إذ لم يفرق جميعها ولا ذاق عنها البعد من أهلها أهل
وإذ لم تبت مثلى تطير قلوبها إذا اهتز باب السجن أو صلصل القفل
وما ذاك مما يعتريه وإنما وصفت الذى فى جلة الخلق من قبل
لنفسى إلى لقيا الحمام تشوق سوى بحب العيش فى ساقه حجل
ألا عصم الله القطا فى فراخها فإن فراخى خانها الماء والظل
وسجن جماعة من أهل فاس فى أغمات فرغبوا إلى السجن أن ييسر
لهم لقاء المعتمد وكان يتسلى بمجالستهم ويستريح إلى محادثتهم إلى أن أطلقوا
من سجنهم فدخلوا عليه يودعون - فقال:

أما لانسكاب الدمع فى الخد راحة لقد آن أن يفنى ويفنى به الخد
هبوا دعوة يا آل فاس لمبتلى بما منه قد عافاكم الصمد الفرد
تخلصتم من سجن أغمات والتنوت على قيود لم يحن فكها بعد
منك الدهم، أما خلقها فأساود تلوى وأما الأيدى والبطش فالأسد
فهنيتم النعمى ودامت لكلكم سعادته، إن كان قد خانى سعد
خرجتم جماعات، وخلقتم واحداً ولله فى أمرى وأمركم الحمد
انظر كيف رقت نفسهن وتمنى لكل خلق أن يعيش حراً سعيداً. فهو
يغبط القطا على حريتها ويدعو لها أن يعصمها الله فى فراخها. وهو يغبط
من خلى سبيلهم، ويدعو لهم أن تدوم لهم السعادة التى حرمها، ويسألهم
الدعاء للخلاص من هذا البلاء.

وتأمل فى هذه الأبيات التى أنشأها حين طلب إليه رجل أن يزوده بشيء

من شعره:

يا سائل الشعر يجتاب الفلاة به تزويدك الشعر لا يعنى عن السغب
زاو منك الريح لا رى ولا شبع غدا له مؤثراً ذو اللب والأدب
أصبحت صفرأ يدي مما تجود به ما أعجب الحادث المقدور فى رجب^(١)
ذل وفقر أزالا عزة وغنى نعى الليالى من البلوى على كشب
قد كان يستلب الجبار مهجته بطشى ويحيا قتيل الفقر فى طلبى
والملك يحرسه فى ظل واهبه غلب من العجم أو شم منك العرب
فحين شاء الذى آتاه ينزعه لم يجد شيئاً قراع السمر والقضب
ويروى الفتح بن خاقان أن المعتمد لما بلغته ابنه عبد الجبار جزع وأشفق
أن يؤخذ بجريرة ولد. ولكن أخبار هذه الثورة فيما يبدو أعادت إلى نفسه
ذكرى القوة والسلطان، وأثارت فيه كوامن العزة والإقدام، ولوحت له بأمل
ضئيل من خلاصة ورجوع ملكه إليه.

يروى الفتح عمن يثق به بعد أن ذكر جزع المعتمد لثورة ابنه:

«ثم أطرق ورفع رأسه وقد تهللت أسرته، وظلمت مسرته. ورأيت أنه قد
استجمع، وتشوف إلى السماء وتطلع. فعلمت أنه رجا عودة إلى سلطانه،
وأوبة إلى أوطانه. فما كان إلا بمقدار ما تنداح دائرة، أو تلتفت مقلة حائرة
حتى قال:

كذا يهلك السيف فى جفنه إلى هز كفى طويل الحنين
كذا يعطش الرمح لم أعنقله ولم تروه من نجميع يميني

(١) حلت به المصيبة فى رجب سنة ٤٨٤.

كذا يمنع الطرف علك الشكيم مرتقباً غرة في كمين
 كأن الفوارس فيه ليوث تراعى فرائسها في عرين
 ألا شرف يرحم المشرفي مما به من شمات الوتين^(١)
 ألا كرم ينعش السمهرى ويشفيه من كل داء دفين
 ألا حنة لابن محنية شديد الحنين ضعيف الأئين^(٢)
 يؤمل من صدرها ضمة تبوئه صدر كبر معين^(٣)
 تأمل نفثات البطولة المصفدة، والعزة المقيدة، والهمة الحبيسة، والسيرة
 الماجدة، يحدها السجن، ويضيق عليها الأسر.

وليس بعيداً أن يكون الرجل على شدة محنته، وعظم نكبتة، قد أسر
 في نفسه أملاً وأضمّر في الحادثات رجاء. كما قال:
 وطن على الكره وارقب إثره فرجاً واستغفر الله تغم منه غفرانا
 وكان شعراؤه يبعثون في نفسه الأمل كما قال ابن اللبانة:

رويدك سوف توسعى سروراً إذا عاد ارتقاؤك للسريير
 وسوف تحلنى رتب المعالى غداة تحل فى تلك القصور
 تزيد على ابن مروان عطاء بها، وأزيد ثم على جرير
 تأهب أن تعود إلى طلوع فليس الخسف ملتزم البدور

(١) شمت الوتين بسيف المعتمد إذ عجز عن قطعه بعد أن قطع ما قطع منه فى الحرب.

(٢) ابن محنية: السهم.

(٣) فى رواية: صدر كفر معين.

وقال فى محبسه :

قبح الدهر فماذا صنعا كلما أعطى نفيساً نزعاً
قد هوى ظلماً بمن عاداته أن ينادى كل من يهوى : لعا
من إذا قيل الخنى صم ، وإن نطق العافون همساً سمعا
قل لمن يطمع فى نائله قد أزال اليأس ذاك الطمعا
راح لا يملك إلا دعوة جبر الله العفاه الضيعا
وقد أجمل وصف الدنيا بعد أن عرف صروفها ، وتقلبت على عينيه
خطوبها فى هذه الأبيات :

أرى الدنيا الدنية لا تواتى فأجمل فى التصرف والطلاب
ولا يغررك منها حسن برد له علمان من ذهب الزهاب
فأولها رجاء من سراب وآخرها رداء منك تراب
على أن المعتمد بن عباد ملك إشبيلة وقرطبة وبطل الزلافة وأسير
أغمات ، كان يلجأ فى مصيبيته إلى الرحمن ، ويجد فى الإيمان به كل
سلوان ، ويتعزى ويتصبر ، ويعلل النفس بالقضاء والقدر ، ويتسلى بصروف
الدهر وغيره ، وخطوبه وعبره .. اقرأ قوله :

اقنع بحظك فى دنياك ما كانا وعز نفسك إن فارقنا أوطانا
فى الله من كل مفقود مضى ، عوض فأشعر النفس سلواناً وإيماناً
أكلما سنحت ذكرى طربت لها مجت دموعك فى خديك طوفانا
أما سمعت بسلطان شبيهك شبيهك قد بزته سود خطوب الدهر سلطانا
وطن على الكره وارقب إثره فرجا واستغفر الله تغم منه غفرانا

ويقول:

تؤمل للنفس الشجيرة راحة وتأبى الخطوب السنود إلا تماديا
لياليك في زاهيك أصفى صحبتها كذا صحبت قبلى الملوك اللياليا
نعيم وبؤس، ذا لذلك ناسخ وبعدهما نسخ الليالى الأمانيا

عيشة المعتمد فى أغمات

مر بنا ما مر من أحوال المعتمد فى شقائه وبؤسه، وما لقى من غير
الأيام فى نكته ومحتتهن وحسب القارئ ما مر به؛ ولكن لعل قارئاً يسأل
كيف كانت عيشة المعتمد؟ لا ريب أنها كانت عيشة ضنكاً ولكن ما كان
مبلغها من الضيق والحрман؟

مر بنا أن المعتمد سأل حواء بنت تاشفين خباء فاعتذرت إليه أن ليس
عندها خباء. ومر بنا أن بناته غزلن للقوت، وإن ابناً له عمل فى حانوت
صائع ومر به ابن اللبانة فأنشأ قصيدته الباكية التى أثبت أنفاً.

ويقول ابن الأثير فى حوادث سنة ٤٨٤:

«وفعل أمير المسلمين بهم أفعالاً لم يسلكها أحد ممن كان قبله، ولا
يفعلها أحد ممن يأتى بعده؛ إلا من رضى لنفسه بهذه الرذيلة. وذلك أنه
سجنهم فلم يجز عليهم ما يقوم بهم حتى كان بنات المعتمد يغزلن للناس
بأجرة ينفقها على أنفسهن. وذكر ذلك المعتمد فى أبيات ترد عند ذكر وفاته
فأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفس ولؤم قدره».

كل هذه الأخبار تدل على بؤس المعتمد وضيق عيشتهم ولكننا نجد فى الأخبار كذلك أنه أعطى الحصرى الشاعر حين قصده فى طنجة وهو فى طريقه إلى المنفى، وأنه أرسل ابن اللبانة حين أزمع السفر من أغسات هدية ذات قيمة فاعتذر ابن اللبانة وردّها. ونقرأ كذلك أن ابن حمديس الشاعر زاره فحجبه الخدم وأنشأ المعتمد أبياتاً يعتذر فيها لابن حمديس ويذكر غباوة خدمه وجهلهم بعد أن كان خدمه ما كانوا وهو فى ملكه ودولته.

والجمع بين هذه الأخبار المختلفة أن الرجل عاش فى شقاء وبؤس وضيق، لا ريب فى هذا، ولا يبعد أن بعض أقاربه أو أصهاره أو أنصاره الذين سلموا منك النكبة أمدوه بما يقيم أوده، ويحفظ كرامته؛ وقد قصده الشعراء ووفوا له فى شدته وكربته فليس بعيداً أن يكون غيرهم قصده أو أرسل إليه ما يخفف عنه شدة الأسر، وقسوة الفاقة، فصلحت حاله أحياناً. ولا أقول إن المعتمد ادخر بعض جواهره وثقائمه فأنفق منها فلو كان عنده بقية من الأعلام ما غزلت بناته للناس ولا نفخ ابنه فى كير صائغ.

أخلاق المعتمد

أسلفنا قول المراكشى:

«وكان فيه منك الفضائل الذاتية ما لا يكاد يحصى كالشجاعة والسخاء والحياء والنزاهة، إلى ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة. وفى الجملة فلا أعلم خصلة تحمد فى رجل إلا وقد وهبه الله منها أوفر قسم، وضرب له فيها بأوفى سهم.

وإذا عدت حسنات الأندلس من لدن فتحها إلى هذا الوقت فالمعتمد هذا إحداها بل أكبرها».

وإن يكن فى هذا القول غلو فهو دليل على مكانة المعتمد عند المؤرخين . فى عصره والعصور التالية . ويتبين من الفصول السابقة كثير من أخلاق المعتمد ابن عباد . فالقارئ يرى سيرته فى نعيمه وبؤسه ، تبين عن أخلاق كريمة وشمال شريفة .

وفى هذا الفصل جمع ما تفرق فى الفصول الأخرى ، وإجمال ما فصل فيها من شمال الرجل ومناقبه .

١ - لا ريب أن المعتمد كان أميراً جواداً يرتاح إلى الجود ، ويلذ العطاء ، ويتوسل إلى مواساة أصحابه وقصاده وسائل شتى ، ويفتن فى الإحسان إليهم كما يقول أبو الطيب فى بى شجاع فاتك :

لطفت رأيك فى برى وتكرمنى إن الكريم على العلياء يحال
ولهذا قصده الشعراء والكتاب من كل صوب .

ولم تفارقه الأريحة للعطاء ، والسماح بالمال فى أيام بؤسه وفقره ، وهو أحوج إلى ما فى يده . فقد أعطى الحصرى الشاعر حين لقيه فى طنجة وهو أسير يسار به إلى معتقله . وأرسل إلى شاعره الوفى أبى بكر الوانى هبة حين زاره فى أغمات فردها الشاعر .

فقد صدق المعتمد حين قال عن نفسه :

وقد حننت إلى ما اعتدت من كرم	حنين أرض إلى مستأخر المطر
وقد تناهت يدى عن كأسها غضب	ومجت الأذن أيضاً نغمة الوتر
حتى أملك هذى ما تجود به	وأسمع الحمد بالأخرى على الأثر
فهاتها خلعا أرضى السماح بها	محفوفة فى أكف الشرب بالبدر

٢ - وكان المعتمد على الله شجاعاً مقداماً، يخوض المعارك ويقدم على الأهوال، أياً يؤثر الموت على الهوان.

وحسبنا بلاؤه فى موقعة الزلاقة، وبسالته فى الدفاع عن إشبيلية، وخروجه حاسراً حين فجأه العدو فى بلده. وهى الحال التى وصفها فى الأبيات:

إن تسلب منى الدنيا ملكى وتسلمنى الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
وقد تقدمت الأبيات.

٣ - وكان حسن المعاشرة، لين العريكة، بكرم أصحابه، ويتواضع لهم. وقد تقدمت سيرته مع أصحابه فى مخاطبتهم مخاطبة الأصدقاء لا الرعية، ومداعبتهم، والتلطف معهم.

وحسبنا قصائده فى ابن زيدون. وقد أمر المعتضد أن يرفع مجلس المعتمد على مجلس المعتمد على مجلس ابن زيدون فكتب المعتمد:

أيها المنحط عنى مجلساً وله فى النفس أعلى مجلس
بفؤادى لك حب يقتضى أن ترى تحمل فوق الأرواس
وهكذا تجده فيما كتب لشعرائه وأصدقائه وقصاده.

وسأنتى اعتذاره لابن حمديس حينما زاره فى أغمات فقال له الخادم إن المعتمد ليس فى الدار، وما كان بينه وبين ابن اللبانة من شعر هناك. وإن يقل هذه حاله فى أسره وبؤسه أقل بل هذا كان ديدنه وهو فى سلطانه ودولته. فما كذب المعتمد حين قال لابن عمار:

متى تلقنى تلق الذى قد بلوته صفوحاً عن الجانى رءوفاً على الصحب
سأوليك منى ما عهدت من الرضا وأصفح عما كان، إن كان، من ذنب
فما أشعر الرحمن قلبى قسوة ولا صار نسيان الأذمة من شعبي
وأما قتله ابن عمار فهو خلاف ما عهد أصحاب المعتمد منه، ورجوه
عنده. وله سبب ذكرته فيما تقدم فى الكلام عن ابن عمار، ولا يقتل المعتمد
صاحبه بعد غلوه فى محبته ومودته إلا لأمر أخرج المعتمد عن طبعه، وحمله
على قتل صديقه بيده.

٤ - وكان وفياً لأصحابه، وحسبنا ما قدمنا فى حديث ابن زيدون،
وقد صدق المعتمد فى قوله جواباً لمن أغروه بالفتك به:

أنى رجوتم غدر من جربتم منه الوفاء وظلم من لا يظلم
أنا ذاكم لا البغى يثمر غرسه عندى ولا مبنى الصنيعة يثلم
٥ - وكان المعتمد صبوراً. نزل به من الكوارث ما تحدث به الناس قروناً
وما زالوا يتحدثون به ويرثون لمن نزلت به هذه المصائب. ونجد المعتمد على ما
أصابه بنيه وبناته ذا طبع شاعر ينظم الشعر فى طريقه إلى المنفى، يذكر شعراء
طنجة الذى ألحفوا فى سؤاله، ويعاتب الحصرى على أنه لم يحب عن شعره،
ويجيب ابن حمديس وابن اللبانة عما ينظمان له من أبيات، ويرثى بنيه،
ويصف بناته فى الأسر والذل، ويذكر عض القيود بساقيه ويودع السجناء من
أهل فاس حين أطلقوا من السجن، وهلم جرا.

ولا ينظم الشعر فى هذه الأحوال، إلا صابر على باواه، جلد فيما
دهاه.

يقول أبو الطيب:

ولكن حمى الشعر إلا القليل هم حمى النوم إلا غراراً
ويقول المعري:

ولكن القريض له مغان وأولاهما به الفكر الحلى
وإن قيل إن الحزن والجزع أنطقاه بالشعر فبعض هذا الشعر ينطق به
الحزن والجزع ولكن بعضه كمحاورة الشعراء لا يدل على حزن وجزع بل على
تعز وتجلد.

٦ - وكان ابن عباد يتعرف أحوال رعيته، ويلطفهم ويمازحهم.

اقرأ هاتين القصتين كما رواهما نفح الطيب:

«مر المعتمد يوماً مع وزيره ابن عمار بباب شيخ كبير كثير التندير
والفكاهة يمزح ذلك بإغراق يضحك الثكلى. فقال لابن عمار: تعال نضرب
على هذا الشيخ الساقط بابه حتى نضحك معه. فضربا عليه الباب.

فقال: من هذا؟ فقال ابن عباد: إنسان يرغب أن تصلح له الفتيلة.
فقال: لو ضرب ابن عباد بابي في هذا الوقت ما فتحت له. فقال: فإني ابن
عباد فقال: مصفوع ألف صفقة.

فضحك ابن عباد حتى سقط على الأرض وقال لوزيره: امض بنا قبل
أن يتعدى الصفع منك القول إلى الفعل. فهذا شيخ ركيك.

ولما كان من غد تلك الليلة وجه له ألف درهم. وقال لموصلها: قل له
هذه من الألف صفقة التي كانت البارحة».

والقصة الثانية :

«كان فى زمان المعتمد السارق المشهور بالبازى الأشهب . وكان له فى السرقة كل غريبة . وكان مسلطاً على أهل البادية . وبلغ من سرقة أنه سرق وهو مصاوب . لأن ابن عباد أمر بصلبه على ممر أهل البادية لينظروا إليه . فبينما هو على خشيته على تلك الحال إذ جاءت إليه زوجته وبناته ، وجعلن يبيكين حوله ويقلن : لمن تتركنا . نضيع بعدك . وإذا بيدوى على بغل وتحت حمل ثياب وأسياب . فصاح عليه : يا سيدى انظر فى أية حالة أنا . ولى عندك حاجة فيها فائدة لى ولك . قال : وما هى ؟ قال : انظر إلى تلك البئر . لما أرهقنى الشرط رميت فيها مائة دينار . فعسى تحتال فى إخراجها . وهذه زوجتى وبناتى يمسكن بغلك ، خلال ما تخرجها . فعمد البدوى إلى جبل ودلى نفسه فى البئر ، بعد ما اتفق معه على أن يأخذ النصف منها .

فلما حصل أسفل البئر قطعت زوجة السارق الحبل وبقي حائراً يصيح . وأخذت ما كان على البغل مع بناتها وفرت به . . .

ورفعت هذه القصة إلى ابن عباد فتعجب منها وأمر بإحضار البازى الأشهب وقال له : كيف فعلت هذا مع أنك فى قبضة الهلكة ؟ فقال له : يا سيدى لو علمت قدر لذتى فى السرقة خليت ملكك واشتغلت بها . فلعبته وضحك منه ثم قال له :

إن سرحتك وأحسنك إليك ، وأجريت عليك رزقاً يقلك أنتوب من هذه الصنعة الذميمة ؟

فقال : يا مولاي وكيف لا أقبل التوبة وهى تخلصنى من القتل .

فعاهده وقدمه على رجال أنجاد. وصار من جملة أحواز المدينة». هاتان قصتان لهما دلالتهما على صلة الرجل برعيتهن ومعرفة أحوالهم، وتفككه معهم.

المعتمدة فى إساره والأوفياء من الشعراء وغيرهم

١

أبو بكر محمد بن عيسى الدانى المعروف بابن اللبانة

وفاء ابن اللبانة للمعتمد بن عباد، مثل كريم من الوفاء للصديق فى نكبته، ومواساته فى مصيبته.

اتصل الشاعر بينى عباد ومدحهم منذ أيام المعتضد أبى المعتمد. وحمد صحبتهم، وشكر نعمتهم، وكتب فى تاريخهم كتاب "الاعتماد فى أخبار بنى عباد" وكتب بعد ما حلت بهم الفاجعة: "نظم السلوك فى مواعظ الملوك" يبين العبرة والموعظة فيما أصاب هؤلاء الأمراء الأدباء الكرماء.

وانقل هنا كلمات للفتح بن خاقان فى كتابه "قلائد العقيان" فيها إجمال حال الشاعر مع المعتمد بن عباد فى دولته ومحنته:

"كان المعتمد على الله يميزه بالتقريب، ويستعذب ما يأتى به من النادر الغريب. ويوليه إنعاماً وإحساناً، ويريه الزمان كله آذاراً ونيسان^(١)، فلما نبت صعباده، وأعوزته من دهره إسعاده، ورحل به إلى المغرب، وحل فيه محل النارح المغترب، وغدرته الأيام غدر أهل خراسان بقتيبة، وفى له أبو بكر بالرحلة إليه وفاء الظعينة لعتيبة. وتراسلا هناك بأشعار شفى بها المعتمد نفسه،

(١) آذار ونيسان من شهور الربيع - أى يجعل زمانه كله ربيعاً.

واستوفى سلوه وأنسه . وشكر له ما ناله من مسلاته ، وحمد عقد موالاته .
وصار له بذلك حق مشهور ، وفخر لا تبليه الدهور .

ولست فى حاجة إلى الإطناب فى وفاء هذا الرجل الكريم فهذه نبذ من
أنبائه ، تدل على عظيم وفائه :

شهد هول الواقعة فى إشبيلية ورأى رأى العين المعتمد وآله يؤسرون .
وأنشأ قصيدته التى قدمت :

تبكى السماء بمزن رائع غادى

على البهاليل من أبناء عباد

يقول الشاعر : " ورحل بالمعتمد وآله بعد استئصال جميع ماله . لم
يصحب معه بلغة زاد ، ولا بغية مراد . فأمضيت عزيمتى فى أتباعه . فوصلت
إليه بأغصات عقب ثقاف استنفذه الله منه^(١) . فذكرت به شعراً كان لى فى
صديق اتفق له مثل ذلك فى الشهر بعينه من العام الماضى . وهو الأمير عبد
الله بن الصفار . وهو :

لم أقل فى الثقاف كان ثقافا

كنت قلبا به وكان شغافا . . .

وجرت بينى وبينه مخاطبات ألد من غفلات الرقيب ، وأشهى من
رشفات الحبيب ، وأدل على السماح ، من فجر الصباح .

فهذا شاعر وفى يذهب فى إثر صاحبه من إشبيلية فى الأندلس إلى

(١) الثقاف : القيد والأغلال التى يصفد بها السجين .

أغمات فى المغرب، وهو لا يرجو خيراً ولا يأمل مغنماً. بل يحتمل المشقة ويركب الخطر حفاظاً على الذمام، ووفاء بالعهد، ومواساة للصديق.

ويقول ابن اللبانة:

"كنت مع المعتمد بأغمات. فلما قاربت الصدر، وأزمت السفر، صرف حيله واستنفد ما قبله. وبعث إلى مع شرف الدولة ولده - وهذا منبئيه أحسن الناس سمئاً، وأكثرهم صمتاً، وتخجله اللفظة، وتجرحه اللحظة، حريص على طلب الأدب، مسارع فى اقتناء الكتب، مثابر على نسخ الدواوين، مفتاح فيها من خطه زهر الرياحين - بعشرين مثقالاً مرابطة وثوبين غير مخيطين. وكتب معها أبياتاً منها:

وإن عذرت حالات الفقير وإن تنقع تكن عين الشكور
تقبل ما يذوب له حياء إليك التزراً من كف الأسير
فامتنعت من ذلك عليه وأجبت بأبيات منها:

تركت هواك وهو شقيق دينى	لئن شقت برودى عن غدور
ولا كنت الطليق من الرزايا	وما أنا من يقصر عن قصير
جذيمة أنت، والزباء خانت	إذا أصبحت أجحف بالأسير
تصرف فى الندى حيل المعالى	فتسمح من قليل بالكثير
وأعجب منك أنك فى ظلام	وترفع للعفافة منار نور
رويدك سوف توسعى سروراً	إذا عاد ارتفاؤك للسرير
وسوف تحلنى رتب المعالى	غداة تحمل فى تلك القصور

تزيد على ابن مروان عطاء بها، وأزيد ثم على جرير
تأهب أن تعود إلى طلوع فليس الخسف ملتزم البدور
وأتبعنها أبياتاً منها:

حاش لله أن أجيح كريماً يتشكى فقراً وكم سد فقراً
وكفنانى كلامك الرطب نيلاً كيف ألفى دراً وأطلب تبراً
لم تمت إنما المكارم ماتت لا سقى الله بعدك الأرض قطراً
اختصر ابن اللبانة الأبيات التى أرسلها المعتمد مع الهدية والأبيات التى
أجاب هو بها. كما أغفل أبيات المعتمد التى أرسلها إليه حينما رد الهدية
معتذراً. وكذلك اختصر الأبيات التى أجاب بها هو عن أبيات المعتمد.

فرايت أن أثبت الأبيات التى اختصرها الشاعر والتى أغفلها، على ما
فى هذا من إطالة، حرصاً على تعريف القارئ بما نظمه المعتمد فى أيام أسره
وما راسل بها الشاعر الوفى ابن اللبانة خاصة.

أثبت ابن اللبانة بيتين للمعتمد أولهما:

إليك النزر من كف الأسير... وبعدها هذه الأبيات:

ولا تعجب الخطب غض منه أليس الخسف ملتزم البدور؟
ورج لجبره عقبى نداه فكم جبرت يداه من كسير
وكم أعلت علاه من حضيض وكم حطت ظباه من أمير
وكم من منبر حنت إليه أعالى مرتقاه، ومن سرير
زمان تراحفت عن جانبيه جياذ الخيل بالموت المير

فقد نظرت إليه عيون نحس
نحوس كن فى عقبى سعو
وكم أحظى رضاه من حظى
زمان تنافست فى الحظ منه
بحيث يطير بالأبطال ذعر
فأجاب ابن اللبانة بهذه الأبيات:

سقطت من الوفاء على الخبير
تركت هواك وهو شقيق دينى
ولا كنت الطليق من الرزايا
أسير ولا أصير إلى اغتنام
إذا ما الشكر كان، وإن تناهى،
جذيمة أنت والزباء خانت
أنا أدري بفضلك منك إنى
غنى النفس أنت وإن ألحت
تصرف فى الندى حيل المعالى
أحدث منك عن نبع غزير
وأعجب منك أنك فى ظلام

مضت منه بعمدوم النظير
كذلك تدور أقدار القدير
وكم شهرت علاه من شهير
ملوك قد تجور على الدهور
ويلفى ثم أثبت من ثبير

فذرني والذى لك فى ضميرى
لئن شقت برودى عن غدور
لئن أصبحت أجحف بالأسير
معاذ الله من سوء المصير
على نعمى، فما فضل الشكور؟
وما أنا من يقصر من قصير
لبست الظل منه فى الحرور
على كفيك حالات الفقير
فتسمح من قليل بالكثير
تفتح عن جنى زهر نضير
..... إلخ

تأتى خمسة الأبيات الأخيرة على النسق الذى فى رواية ابن اللبانة.

وهذه الأبيات التي أنشأها المعتمد حين أبى ابن اللبانة قبول الهدية:

رد برى بغياً على وبراً	وجفا فاستحق لوماً وشكراً
حاط نزرى إذ خاف تأكيد ضرى	فاستحق الجفاء أن حاط نزرأ
فلإذا ما طويت فى البعض حمداً	عاد لومى فى البعض سراً وجهراً
يا أبا بكر الغريب وفاء	لا عدمناك فى المغارب ذخراً
أى نفع يجدى احتياط شفيق	مت ضرراً فكيف أرهب ضرراً
فأجاب ابن اللبانة:	

أيها الماجد السמידع عذراً	صرفى البر إنما كان برا
حاش لله أن أجيح كريمةً	يتشكى فقراً وكم سد فقراً
لا أريد الجفاء فيه عقوقاً	غدر الدهر بى لئن رمت غدرأ
ليت لى قسوة أو آوى لركن	فتسرى للوفاء منى سار
أنت علمتنى السيادة حتى	ناهضت همى الكواكب قدراً
ربحت صفقة أرىل بروداً	عن أديمى بها وألبس فخراً ^(١)
وكفانى كلامك الرطب نيلاً	كيف ألقى درا وأطلب تبرأ
لم تمت إنما المكارم ماثت	لا سقى الله بعدك الأرض قطراً

(١) كان فى هدية المعتمد ثياب. فالشاعر يقول لبست الفخر بعد البرد وهى صفقة رابحة.

واستمع ما يقول الفتح بن خاقان عن الشاعر وأميره حين زاره في محبسه: "وفى هذه الحالة زاره الأديب أبو بكر بن اللبانة. وكان المعتمد رحمه الله يميزه بالشفوف والإحسان، ويجوزه على فرسان هذا الشأن. فلما رآه وحلقات الكبل قد عضت ساقيه عض الأسود، والتوت عليه التواء الأساود السود. وهو لا يطيق أعمال قدم، ولا يريق دمعاً إلا ممزوجاً بدم. بعد ما عهده فوق منبر وسرير، ووسط جنة وحرير، تخفق عليه الألوية، وتشرق منه الأنديّة وتكف الأمطار من راحتته، وتشرف الأقدار بحلول ساحتها، ويرتاع الدهر من أوامره ونواهيها، ويقصر النسر أن يقارنه أو يضاهيه، ندبه بكل مقال يلهب الأكباد، ويثير فيها لوعة الحارث بن عباد، من أناشيد معبد، وأصدع للكبد من مراثي أريد^(١) أو بكاء ذى الرمة بالمربد، سلك فيها للاحتفاء طريقاً لاحقاً، وغدا فيها لذيول الوفاء ساحباً، فمن ذلك قوله:

انفض يدك من الدنيا وساكنها	فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها السفلى قد كتمت	سريرة العالم العلوى أغامت
طوت مظلتها، لا بل مذلتها	من لم تزل فوقه للعز رايات
من كان بين الندى والبأس أنمله	هندية، وعطاياه هنيئات
رماه من حيث لم تستره سابغة	دهر مصيباته نبل مصيبات
أنكرت إلا التواءات القيود به	وكيف تنكر فى الروضات حيات
غلطت بين هماين ^(٢) عقدن له	وبينها، فإذا الأنواع أشتات

(١) معبد الغنى المعروف وأريد أخو لييد الشاعر. رثاه أخوه رثاءً موجعاً.

(٢) هماين جمع هيمان. وهو حزام عريض أجوف يوضع فيه المال ويشد على الوسط.

وقلت هن ذؤابات فلم عكست
حسبتها من قنا أو من أعتته
دروه لنا فخافوا منه عادية
لو كان يفرج عنه بعض آونة
بحر محيط عهدناه تجيء له
لهفى على آل عباد فإنهم
راح الحيا وغدا منهم بمنزلة
أرض كأن على أقطارها سرجًا
وفوق شاطئ واديها رياض ربًا
من رأسه نحو رجليه الذؤابات
إذا بها لثقاف المجد آلات
عذرتهم. فلعدو الليث عادات
قامت بدعوته حتى الجمادات
كنقطة الدارة، السبع المحيطات
أهله مالها فى الأفق هالات
كانت لنا بكر فيها وروحان
قد أوقدتن بالأدهان أنبات
قد ظللتها من الأنشام دوحات^(١)

إلى أن يقول بعد تعديد مواطن السرور واللهو فى ديار بنى عباد:

معاهد ليت أنى قبل فرققتها
فجعت منها بإخوان ذوى ثقة
قد مت والتاركوها ليتهم ماتوا
والأرض فيها من الأخوان آفات

وسنة ست وثمانين وأربعمائة بعد أسر المعتمد بسنتين، كان الشاعر فى
أغمات يواسى الأمير، ويندب حظه، وينظم القصائد أوزانها وقوافيها من
اللوعات والزفرات. أنشأ هناك قصيدة طويلة منها:

لئن عظمت فيك الزرية إنسا
قناة سعت للطعن حتى تقصفت
وجدناك منها فى البرية أعظما
وسيف أطلال الضرب حتى تثلما

(١) الأنشام جمع نشم وهو شجر.

ومنها:

بكى آل عباد ولا كمحمد
حيب إلى قلبى حبيب، لقوله:
صباحهم كنا به نحمد السرى
وكنا رعيننا العز حول حماهم

ومنها:

حكيت وقد فارقت ملكك مالكا
مصاب هوى بالنيرات من العلا
تضيق على الأرض حتى كأنما
ندبتك حتى لم يخل لى الأسى
وإنى على رسمى مقيم، فإن أمت
بكاك الحيا، والريح شقت جيوبها
ومزق ثوب البرق واكتست الضحى
وحارابنك الإصباح وجداً فما اهتدى
وما حل بدر التم بعدك دارة

وأولاده صوب الغمامه إذ همى
"عسى طلل يذنوبهم ولعلما" (١)
فلما عدمناهم سرينا على عمى
فقد أجذب المرعى وقد أقفر الحمى

ومن ولهى أحكى عليك متمما (٢)
ولم يبق فى ارض المكارم معلما
خلقت وإياها سواراً ومعصما
دموعاً بها أبكى عليك ولا دما
سأجعل للباكين رسمى موسما
عليك، وناح الرعد باسمك معلما
حداداً وقامت أنجم الجو مائماً
وغار أخوك البحر فيضاً فما طمى
ولا أظهرت شمس الظهيرة مبسما

وكانت قيود المعتمد انفكت عنه فأشار إلى هذا فى القصيدة:

(١) حبيب... أبو تمام الشاعر.

(٢) مالك بن نويرة رثاه أخوه متم بقصائد مبكية.

قيودك ذابت فانطلقت لقد غدت قيودك منهم بالماكارم أرحما
عجبت لأن لان الحديد وإن قسوا لقد كان منهم بالسريرة أعلما
سينجيك من نجى من السجن يوسفًا ويؤويك من آوى المسيح بن مريما

هذا الشاعر الوفى يشيد بممدوحه فى أسره، ويلوم أسريه وهم أصحاب
الدولة والسطوة، ويؤمل له النجاة والعود إلى ملكه. وفى هذا مخاطرة
بنفسه، وتعرض لعقاب المرابطين وهو فى سلطانهم. والشاعر فيهذا كله لا
يريد جزاء ولا شكورًا، ولكنه الرثاء للصديق، والوفاء لصاحب المعروف.

قال المقرئ فى نفح الطيب:

"ولأبى بكر الدانى المذكور فى البكاء على أيامهم وانتشار نظامهم عدة
مقطعات وقصائد هى قررة عين الطالب، ونجعة الرائد. وقد اشتمل عليها جزء
لطيف صدر عنه فى هيئة تصنيف سماه "السلوك فى وعظ الملوك" (١) ووفد
على المعتمد بأغصات عدة وفادات لم يخل فى جميعها من إفادات. وقال فى
إحداها: "هذه وفادة وفاء لا وفادة اجتداء".

أقول: تقدم أنه أبى أن ينال شيئًا من المعتمد بعد نكبته. فقول المقرئ أو
من نقل عنه "لم يخل فى جميعها من إفادات" لا أدرى ما سنده.

وتصور هذا المراءى الفطيع: مر ابن اللبانة فى أحد الأسواق - فإذا ابن
من أبناء المعتمد، كان يلقب فى سلطان أبيه بفخر الدولة، اضطره نكد الدنيا

(١) ذكر آنفًا باسم نظم الملوك فى مواضع الملوك.

وقسوة الزمان، إلى أن يخدم فى حانوت صائغ ليحصل قوته. رآه ينفخ فى الفحم ليشعل النار. فماذا يقول الصديق الشاعر حين يرى ابن المعتمد، ومن رآه فى ظلال النعمة والسؤدد، ينفخ النار فى حانوت صائغ، أى مرأى يهيج الأحزان، ويملى عبر الزمان... قال:

شكاتنا لك يا فخر العلا عظمت	والرءى يعظم فيمن قدره عظما
طوقت من نائبات الدهر مخنقة	ضاقت عليك وكم طوقتنا نعما
وعاد طوقك فى دكان قارعة	من بعد ما كنت فى قصر حكى إرما
صرفت فى آلة الصواغ أثملة	لم تدر إلا الندى والسيف والقلمما
يد عهدتك للتقبيل تبسطها	فتستقل الثريا أن تكون فما
يا صائغًا كانت العليا تصاغ له	حليا وكان عليه الحلى منتظما
للفخ فى الصور هول ما حكاه سوى	هول رأيتك فيه تنفخ الفحمما
وددت إذ نظرت عيني إليك به	لو أن عيني تشكو قبل ذاك العمى
ما حطك الدهر، لما حط، من شرف	ولا تحيف من أخلاقك الكرمما
لح فى العلا كوكبا إن لم تلح قمرًا	وقم بها ربوة إن لم تقم علما
واصبر فربتما أحمدت عاقبة	من يلزم الصبر يحمد غب ما لزما
والله لو أنصفتك الشهب لانكسفت	ولو وفى لك دمع الغيث لا نسجما
أبكى حديثك حتى الدر حين غدا	يحكيك رهطًا وأفاطًا ومبتسما
وأختم حديث الشاعر الوفى والأمير التيعس، بأبيات نظمها الشاعر	
يذكر معاهد العز والجذل من ديار بنى عباد:	

أستودع الله أرضاً عندما وضحت بشائر الصبح فيها بدلت حلكا
كان المؤيد بستاناً بساحتها يجنى النعيم وفي عليها فلكا^(١)
فى أمره لملوك الدهر معتبر فليس يغتر ذو ملك بما ملكا
نبيه من جبل خرت قواعده فكل من كان فى بطحائه هلكا

٢

وفاء ابن حمديس

ومن الشعراء الذين وفوا للمعتمد فى أسره، وواسوه فى محنته الشاعر
عبد الجبار. ابن حمديس.

لما أسر المعتمد وأخذ إلى أغمات، أنشأ الشاعر قصيدة تنبض حزناً
ولوعة، وتنطق بما كرب الشاعر فى هذه النازلة:

أباد حياتى الموت إن كنت ساليًا وأنت مقيم فى قيودك عانيا
وإن لم أبار المزن قطراً بأدمع عليك فلا سقيت منها الغواديا
تعريت من قلبى الذى كان ضاحكًا فما ألبس الأجفان إلا بواكيا
وما فرحى يوم المسرة طائعا ولا حزنى يوم المساء عاصيا
وهل أنا إلا سائل عنك سامع أحاديث تبكى بالنجيع المعاليا
إلى أن يقول:

(١) المؤيد هو المعتمد على الله.

وما كنت أخشى أن يقال محمد
حسام كفاح بات فى السجن مغمداً
فيا جبلاً هد الزمان هضابه
قصرت ولما تقض حاجتك التى
ويقول:

أمر بأبواب القصور وأغتنى
وأشدد لا ما كنت فيهن منشداً
وأدعو بنيتها سيداً بعد سيد
مضيت حميداً كالغمامة أقشعت
سأدمى جفونى بالسهاد عقوبة
وأمنع نفسى من حياة هنيئة

وكتب المعتمد إلى ابن حمدىس الآيات التى أولها:

غريب بأرض المغربين أسير
وقد أثبتها فيما تقدم.

فأجاب الشاعر:

جرى بك جد بالكرام عثور
لقد أصبحت بيض الظبى فى غمودها
تجىء خلافاً للأمور أمور

يميل عليه صائب الدهر قاسيا
وأصبح من حلى الرئاسة عاريا
أما كنت بالتمكين فى العز راسيا؟
جرى الدهر فيها راجلاً لك حافيا

لمن بان عنها فى الضمير مناجيا
ألا حى بالدو الرسوم الخواليا
ومن بعدهم أضحت رماما بواليا
وقد ألبست وشى الربيع المغانيا
إذا وقفت عنك الدموع الحواريا
لأنك حى تستحق المراثيا

سيبكي عليه منبر وسرير

وجار زمان كنت فيه تجير
إنائاً لترك الضرب، وهى ذكور
ويعدل دهر فى الورى ويجور

أتأس من يوم يناقض أمسه
وقد تنبه الأقدار بعد خمولها
لئن كنت مقصوراً بدار عمرتها
أعز الأسارى أن يقال: محمد
إلى أن يقول:

إلى اليوم لم تذعر قطا الليل قرح
ولا راح من نادى المكارم بالغنى
لقد صنت دين الله خير صيانة
ولما رحلت بالندى فى أكفكم
رفعت لسانى بالقيامة قد أتت
فغير بها عند الصباح مغير
يقبله فى راحتين فقير
كأنك قلب فيه وهو ضمير
وقلقل رضوى منكم وثبير
فهذى الجبال الراسيات تسير

وذهب الشاعر لزيارة المعتمد فى أغمات فصرفه بعض خدمه بأنه لا
يوجد فى ذلك الوقت. فرجع عبد الجبار إلى منزله. فأخبر المعتمد بمجيئه
ورجوعه فعسر ذلك عليه وعنف خدمه. وكتب إليه بالغداة بهذا الشعر يعتذر
إليه:

حجبت فلا والله ما ذاك عن أمرى
فما صار إخلال المكارم لى هوى
عدمت من الخدام كل مهذب
ولم يبق إلا كل أدكن ألكن
فأصغ فدتك النفس سمعاً إلى عذرى
ولا دار إخجال لمثلك فى صدرى
أشير إليه بالخفى من الأمر
فلا آذن فى الأذن يبرى

حمار إذا يمشى، ونسر محلق
وليس بمحتاج أتانا حمارهم
وهل كنت إلا البارد العذب، إنما
ولو كنت ممن يشرب الخمر كتتها
وأنت ابن حمديس الذى كنت مهدياً
فأجابه ابن حمديس بأبيات منها:

وإنى امرؤ فى خجلة مستمرة
أتتى قوافيك التى جل قدرها
لعلك إذ أغنيتهى منك بالندى
لعمرك إنى ما توهمت ريبة
يذوب لها فى الماء جامدة الصخر^(١)
مبا نقطة منهم مغرقة بحرى
أردت الغنى لى من مديحك بالفخر
تبرقع وجه العرف عندك بالنكر

وكنت أمل الجود منك وأنت لا
فكيف أظن الظن غير مبرأ
يخف على خدام ملك حجابتى
إلى أن يقول:

ليالى لا أشدوك إلا مطوقاً بنعماك فى أفنان روضاتك الخضر

(١) هذه الأبيات محرفة فى الديوان - وكل قصائد الديوان محرفة - وقد صححتها قدر الطاقة. ومن أمثلة التحريف أن الشطر الثانى من البيت الثانى جاء فى الديوان: بما نقطة منهم معروفة تجرى وصحتها كما يرى القارئ.

وما زال صوب من نداك يبلنى ويشقلنى حتى عجزت عن الوكر
بكيت زمانًا كان لى بك ضاحكًا وكسر جناحى كان عندك ذا جبر
وأطرقت لما حالت الحال حيرة تحير منها عالم النفس فى صدرى
فخذها كما أدرى، وإن كل خاطرى وإن لم يكن منها البديع الذى تدرى

٣

المعتمد وابن زهر فى أغمات

يقول المراكشى فى كتاب "المعجب فى تلخيص أخبار المغرب" :

"وكان الوزير أبو العلاء بن زهر بن عبد الملك بن زهر بمراكش، قد
استدعاه أمير المسلمين لعلاجه، فكتب إليه المعتمد راغبًا فى علاج السيدة
ومطالعة أحوالها بنفسه.

فكتب إليه الوزير مؤديًا حقه، ومجيبًا له عن رسالته، ومسعفًا له فى
طلبته. وافترق أن دعا له أثناء الرسالة بطول البقاء فقال المعتمد فى ذلك :

دعا لى بالبقاء وكيف يهوى أسير أن يطول به البقاء
أليس الموت أروح من حياة يطول على الشقى بها الشقاء
فمن يك من هواه لقاء حب فإن هواى من حتفى اللقاء
أأرغب أن أعيش أرى بناتى عوارى قد أضر بها الحفاء
خوادم بنت من كان قد أعلى مراتبه، إذا أبدو، النداء
وطرد الناس بين يدى ممرى وكفهم إذا غص الفناء

وركض عن يمين أو شمال
يعنيـه أمام أو وراء
ولكن الدعاء إذا دعاه
جزيت أبا العلاء جزاء بر
سيلى النفس عما فات علمى
لنظم الجيش إن رفع اللواء
إذا اختال الأمام أو الورا^(١)
ضمير خالص نفع الدعاء
نوى برا، وصاحبك العلاء
بأن الكل يدركه الفناء

(١) الظاهر أنه يعنى عريف الشرطة. وقد أرسلت بته صوقاً إلى بنات المعتمد ليغزلنه لها.

أولاد المعتمد وأهمهم

يقول الفتح بن خاقان فى قلائد العقيان بعد ذكر المعتمد وشجاعته وجوده وأدبه واجتماع الأنجاد والشعراء والأدباء بساحته :

"وكان قومه وبنوه لتلك الحلبة زينا، ولتلك الجملة عينا. إن ركبوا خلت الأرض فكأ يحمل نجوما، وإن وهبوا رأيت الغمام سجومًا. وإن أقدموا أحجم عترة العبسى، وإن فخروا أفحم عرابة الأوسى".
ويقول ابن اللبانة^(١):

"وكان له من بنيه عقدة أقمار نظمهم نظم السلك، وزين بهم سماء ذلك الملك. فكانوا معاقل بلاده، وحماة طارقه وتلاده".

وقبل أن أثبت ما جمعته من شتات الأخبار فى سيرة أولاد المعتمد أذكر طرقًا من أخبار أهمهم، التى اقترن سعدا بسعد المعتمد، ونحسها بنحسه وقبرها بقبره. ولها فى الأدب أخبار سائرة وأشعار.

قال فى نفح الطيب:

"ومن المشهورات بالأندلس اعتماد جارية المعتمد بن عباد وأم أولاده وتشهر بالرميكية"^(٢).

ثم يقص صاحب النفح من طرائفها عبارات تدل على ولوعها بالنادرة وكلفها بالجنسا حتى فى أيام المحنة: قال: "ولما خلع المعتمد وسجن بإمات قال له: يا سيدى لقد هنا هنا - فقال مجنسًا أيضًا:

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٣٧٦.

(٢) نسبة إلى رميك تاجر فى إشبيلية - كانت من جواريه.

قالت: لقد هنا هنا مولاي أين جـاهنا
قلت: لـهـا إـلا هنا صـيـرنا إـلى هنا
وحكى أنها قالت له وقد مرض: يا سيدى ما لنا قدرة على مرضاتك
فى مرضاتك.

ولما قال ابن عمار قصيدته اللامية الشهيرة فى المعتمد والرميكية أغرت
المعتمد به حتى قتله وضربه بالطبرزين ففلق رأسه وترك البرزين فى رأسه
فقالت الرميكية.. صار ابن عمار هداهدا.

وقد قدمت خبر هذه القصيدة فى ترجمة ابن عمار.

ثم ينقل صاحب النفع عن ابن سعيد قوله:

"كان المعتمد كثيراً ما يأنس بها ويستظرف نوادرها. ولم تكن لها معرفة
بالغناء. وإنما كانت مليحة الوجه، حسنة الحديث، حلوة النادرة، كثيرة
الفكاهة لها فى كل ذلك نوادر محكية".

"وكانت فى عصرها ولادة بنت محمد بن عبد الرحمن. وهى أبداع
منها ملحاً، وأحسن اقتنائاً وأجل منصباً. وكان أبوها أمير قرطبة ويلقب
بالمستكفى بالله. وأخبار أبى الوليد بن زيدون معها وأشعاره فيها مشهورة".
هذا ما نقله المقرئ عن ابن سعيد.

ويقول صاحب النفع:

"ومن أخبار الرميكية القصصة المشهورة التى قال فيها المعتمد لها: ولا يوم

الطين".

وخلاصة ما ذكره المقرئ وغيره فى هذه القصة، أن الرميكية أطلت من قصرها فرأت القرويات فى يوم مطير، يمشين فى الوحل فى طرق إشيلية، وعلى رؤوسهن الجرار، فاشتته أن تشبه بهن، فأمر المعتمد فسحقت أنواع من الطيب فى ساحة القصر ثم صب عليها ماء الورد من غرابيل. وعجنت بالأيدى حتى صارت كالطين، فمشت الرميكية وجواربها فى هذا الوحل. وقد غاضبت المعتمد يوماً فأقسمت أنها لم تر منه خيراً قط. فقال: ولا يوم الطين. فاستحت واعتذرت.



أسرت الرميكية مع زوجها، وقضت أيام المحنة فى صحبته، ودفنت فى جواره. وتناقل المغاربة أخبار المعتمد وأخبارها عصوراً بعد وفاتهما. وكانت أخبارهما شائعة فى المغرب حتى عصر المقرئ - مؤلف نفح الطيب المتوفى سنة ١٠٤١ هـ.



أولاد المعتمد

فى كتب التاريخ الأندلسى والأدب، أخبار شىء من أخبار أولاد المعتمد، وكانوا كأبيهم أنجاداً أجواداً شعراء.

يقول الشاعر أبو البكر الدانى المعروف بابن اللبانة يمدح المعتمد وبنيه:

يغيثك فى محل، يعينك فى ردى يروعك فى درع، يروقك فى برد
جمال وإجمال وسبق وصوله كشمس الضحى كالمزن كالبرق كالرعد
بمهيته شاد العلا ثم زادها بناء بأبناء جحاححة لد
بأربعة مثل الطباع تركبوا لتعديل جسم المجد والشرف العد
هؤلاء الأربعة هم الرشيد عبد الله والراضى يزيد والمأمون والمؤتمن كما
روى ابن خلكان. وأحسب أنهؤلاء كانوا الكبار من بنى المعتمد. وللمعتمد
أولاد آخرون نجد أسماءهم فى كتب التاريخ والأدب. نجد الظافر والمعتد
ومالكاً وعبد الجبار وأباً هاشم وبثينة وشرف الدولة وفخر الدولة.

أبدأ بالحديث عن هؤلاء الأربعة الذين عددهم ابن اللبانة. ثم أثبت نتفاً
من أخبار الآخرين.

وأبدأ من الأربعة بالراضى إذ ترجم له الفتح بن خاقان بعد ترجمة أبيه.
ولم يترجم لإخوته فدل على أنه بلغ درجة الشعراء الذين يترجم لهم الفتح.

الراضى بالله

أبو خالد يزيد بن المعتمد

يقول الفتح بن خاقان:

"ملك تفرع من دوحة سناء، أصلها ثابت وفرعها فى السماء. وتحدّر من سلالة أكابر، ورقاة أسرة ومنابر. وتصرف أثناء شببته بين دراسة معارف، وإفاضة عوارف. وكلف بالعلم حتى صار ملهج لسانه، وروضة أجفانه. لا يستريح منه إلا إلى فرس سائل الغرة، ميمون الأسرة، يسابق به الرياح، ويحاسن بغرته البدر اليّاح، عرنين فى السناء، عتيق الاقتناء، سريع الوخذ والإرقال، من ولد أعوج أو ولد لذى العقال.

إلى أن ولاه أبوه الجزيرة الخضراء وضم إليها رندة الغراء.

فانتقل متن الجواد إلى ذروة الأعواد. وأقلع عن الدراسة، إلى تدبير السياسة، وما زال يدبرها بجودة ونهاه، ويورد الأمل فيها مناه، حتى غدت عراقًا، وامتلات إشراقًا. إلى أن اتفق فى أمر الجزيرة ما أتنق، وخاب فيها الرجاء وأخفق، واستحالت بهجتها، وأحالت عليها من الحوادث لجتها. فانتقل إلى رندة معقل أشب، ومنزل إلى السماك منتسب. وأقام فيها رهين حصار، ومهين حماة وأنصار، ولقيت ريحه كل إعصار. حتى رمته سهام الخطوب عن قسيها، وأمكنت منه يدى مسيتها، فحواه رمسه، وطواه من غده أمسه. حسبما بسطنا القول فيما مر من أخبار أبيه "أه.

كان الراضى والى الجزيرة الخضراء حين عبر يوسف بن تاشفين إلى

الأندلس، ومما يؤثّر من أخباره: أنه قبض على ابن عمار فى شقوره سنة ٦٧٧ كما تقدم فى أخبار هذا الشاعر.

كان الراضى كلفا بمطالعة الكتب والدواوين ، مولعاً بالشعر . وبما يؤثر من شعره ، ما كتب إلى أبيه حين عتب إليه قعوده عن لقاء العدو ، وعكوفه على دفاتره . وكان العدو قصد لورقة والراضى فى رنده ، فأمره المعتمد بالخروج إليه فتلکأ . فوجه المعتمد ابنه المعتد للقاء العدو فهزم جيش المعتد . واشتد غضب المعتمد على الراضى فكتب الراضى إليه :

لا يكرثنك خطب الحادث الجارى	فما عليك بذاك الخطب من عار
ماذا على ضيغم أمضى عزيمته	إن خانه حد أنياب وأظفار
ماذا أتوك فمن جبن ومن خور	قد ينهض العير نحو الضيغم الضارى
عليك للناس أن تبقى لنصرتهم	وما عليك لهم إسعاد أقدار
لو يعلم الناس فيما أن تدم لهم	بكوا لأنك من ثوب الصبا عارى
ولو أطاقوا انتقاصاً من حياتهم	لم يتخفوك بشيء غير أعمار

فلم يرضى أبوه عنه ، ولا غفر له زلته ، ثم كتب إليه ساخراً به :

الملك فى طى الدفاتر	فتخل عن قود العساكر
طف بالسرير مسلماً	وارجع لتوديع المنابر
وازحف إلى جيش المعارف	تقهر الخبر المغامر
واطعن بأطراف البراع - نصرت -	فى ثغر المحابر
واضرب بسكين الدواة	مكان ماضى الحد باثر
أو لست رسطاليس إن	ذكر الفلاسفة الأكابر
وأبو حنيفة ساقط	فى رأى حين تكون حاضر

وكذلك إن ذكر الخليل
من هرمس من سيبويه
هذى المكارم قد حويت
فاقعد فإنك طاعم
لحجبت وجه رضاي عنك
أو لست تذكر وقت لورقة
لا يستقر مكانه
هلا اقتديت بفعله
قد كان أبصر بالعواقب
فكتب إليه الراضى :

مولاي قد أصبحت كافر
وفللت سكين الدواة
وعلمت أن الملك ما
والمجد والعلواء في
لا ضرب أقوال بأقد
قد كنت أحسب من سفاه
فإذا بها فرع لها
لا يدرك الشرف الفتى

فأنت نحوى وشاعر
من ابن فورك إذ تناظر؟
فكن لمن حبابك شاكر
كاس . وقل هل من مفاخر
وكنت قد تلقاه سافر
وقلبك ثم طائر
وأبوك كالضرغام خادر
وأطعته إذ كان أمر
والموارد والمصادر

بجميع ما تحوى الدفاتر
وظلت للأقلام كاسر
بين الأسنة والبساتر
ضرب العساكر بالعساكر
سوال ضعيفات مناكر
أنها أصل المفاخر
والجهل للإنسان عاذر
إلا بعسال وباتر

وهجرت من سميتهم
لو كنت تهوى ميتى
ضحك الموالى بالعبيد،
إن كان لى فضل فمـنك
أو كان بى نقص فمـنى
ذكرت عبدك ساعة
يا ليتـه قد غيبـته
أتريد منى أن أكـون
هيهات ذلك مطـمع
لا تنس - يا مولاي - قـو
ضبط الجزيرة حينما
أيام ظلت بها فر
إذ كان يعشى ناظرى
ويضم أسماعى بها
وهى الحضيض سهولة
هبنى أسأت كما أسأ
هب زلتى لبنوتى
وجحدت أنهم أكابر
لوجدتنى للعيش هاجر
إذا تؤمل، غير ضائر
وهل لذاك النور سائر
غير أن الفضل غامر
يبقى لها ما عاش ذاكر
عندها إحدى المقابر
كمن غدا فى الدهر غادر
يعبى الأوائـل والأواخر
له ضارع لا قول فآخر
نزلت بعقوتها العساكر
يدأ ليس غير الله ناصر
لمع الأسنة والبـواتر
قرع الحجارة بالخوافر
لكن ثبت بها مخاطر
ت، أما لهذا العتب آخر
واغفر فإن الله غافر

يقول الفتح :

فقربه وأدناه وصفح عما كان جناه .

ويؤخذ من سيرة الراضى أن أباه كان يلومه بين الحين والحين فيعتذر ويستعتب . وأنه كان يعتب على أبيه لتقديم إخوته عليه . ويظهر أن سيرة الراضى فى العكوف على الكتب والاشتغال بها عن أمور الدولة أحياناً ، كانت منشأ خلاف بينه وبين أبيه .

يقول الفتح فى ترجمة الراضى فى قلائد العقيان :

«وكان المعتمد رحمه الله كثيراً ما يرميه بلامه ، ويُصميه بسهامه . فربما استظلفه بمقال أفصح من دمع المزون ، وأملح من روض الحزون . فإنه كان ينظم من بديع القول لآلئ وعقوداً ، تسلّ من النفوس سخائم وحقوقاً . . . فمن ذلك قوله وقد أنهض جماعة من إخوته وأقعدهم :

أعيذك أن يكون بنا خمول ويطلع غيرنا وبنا أفول
حنانك . إن يكن جُرمى قبيحاً فإن الصفح عن جرمى جميل
ألستُ بفرعك الزاكى وماذا يرجى الفرعُ خائته الأصول
ومن شعر الراضى وقد مر به ركب فيه جماعة من الألفه فى صباه بعدوا عنه زمناً :

مروا بنا ألا من غير ميعاد فأوقدوا نار قلبى أى إيقاد
وأذكرونى أياماً لهوتُ بهم فيها ففازوا بإيثارى وإحمادى
لا غرو أن زاد فى وجدى مرورهم فرؤية الماء تُذكى غلة الصادى

وكان الراضى على الجزيرة إذ طلب المرباطون أن يحتلوها حين عبورهم إلى الأندلس فطير إلى أبيه الخبر فأمره بتسليمها.

وقد انتهى أمر الراضى إلى أن قتله المرباطون فى القوارع التى نزلت بساحة بنى عباد حين دهمهم من المرباطين ما دهمهم.

كان الراضى فى رُندة - إحدى معاقل الأدلس النبعة وقواعدها السامية الرفيعة - فقصده جيش من جيوش المرباطين لم يطمع فى حربته وهو فى البلد الحصين والمعقل الأشب. فلما كان فى إشبيلية ما كان أمر المعتمد أن يكتب إلى ابنه الراضى ليسالم المرباطين، وينزل إليهم من معقله. فنزل إليهم إشفافاً على أبيه وذويه «بعد أن عاقدتهم مستوثقاً وأخذ عليهم عهداً من الله موثقاً. فلما وصل إليهم، وحصل فى يديهم، مالوا به عن الحصن وجرعوه الردى». وكانوا قتلوا أخاه المأمون فى قرطبة، وللمعتمد مريثة فيهما أثبتها بعد فى الحديث عن المأمون.

الرشيد عبد الله بن المعتمد

قال صاحب نفح الطيب:

"وكان الرشيد هذا أحد أولاد المعتمد النجباء، وله أخبار فى الكرم يقضى الناظر فيها من أمرها عجبا، وكذلك إخوته" (١).

ومما مر به من غريب الحوادث، أن أبا بكر بن عمار الشاعر الذى وزر للمعتمد بن عباد، وكان له شأن فى دولته حيناً - اضطر فى إحدى مغامراته

(١) نفح الطيب ج ٦ ص ٨.

أن يرهن الرشيد بن المعتمد عند أمير برشلونة المسيحي الملقب رأس الأسطى
على أن يعينه هذا الأمير على أخذ مرسية من يد ابن طاهر، إلى أن يؤدي إليه
المعتمد مالا اتفقا عليه^(١).

وهو، كأبيه وأمه وإخوته، أديب شاعر، له أخبار قليلة متفرقة فى نفخ
الطيب والمغرب والذخيرة.

منها أن أباه أنشأ مصراعاً فى قبته المسماة سعد السعود فوق المجلس
المزمى الزاهى: سعد السعود يتيه فوق الزاهى.

واستجاز الحاضرين فعجوزا فقال الرشيد:

وكلاهما فى حسنه متناهى

ومتى اعتدى سكناً لمثل محمد قد جل فى العليا عن الأشباه

لازال يبلغ فيهما ما شاء ودهت عداه من الخطوب دواهى^(٢)

وفى أخبار المعتمد أنه أمر بصياغة غزال وهلال من ذهب فصيفاً، فجاء
وزنهما سبعمائة مثقال فأهدى الغزال إلى السيدة ابنة مجاهد والهلال إلى ابنه
الرشيد وقال:

بعثنا بالغزال إلى الغزال وللشمس المنيرة بالهلال

إلى آخر القصة^(٣).

(١) الفكر الأندلسى ص ٩١.

(٢) نفخ الطيب ج ٥ ص ١٤٦.

(٣) مقدمة ديوان المعتمد عن نفخ الطيب.

وحكى صاحب النفع عن ابن اللبابة:

"كنت بين يدي الرشيد بن المعتمد في مجلس أنسه فورد الخبر بأخذ يوسف بن تاشفين غرناطة سنة ٤٨٣هـ فتفجع وتلهف واسترجع وتأسف. وذكر قصر غرناطة فدعونا لعزه بالدوام، ولملكه بتراخي الأيام، وأمر عند ذلك أبا بكر الأشبيلي بالغناء فغنى:

إن شئت ألا ترى صبراً لمصطبر فانظر على أى حال أصبح الطل
فتأكد تطيره، واشتد ابرداد وجهه وتغيره، وأمر مغنية أخرى بالغناء
فغنت:

يا لهف نفسى على مال أفرقه على المقلين من أهل المروءات
إن اعتذارى إلى من جاء يسألنى ما لست أملك من إحدى المصيبات
قال فتلافيت الحال بأن قلت:

محل مكرمة لا هد مبناه وشمل مآثرة لا شئت الله
البيت كالبين لكن زاد ذا شرقاً أن الرشيد مع المعتد ركناه
ثاوعلى أنجم الجوزاء مقعده وراحل فى سبيل السعد مسراه
حتم للملك أن يقوى وقد وصلت بالشرق والغرب يمناه ويسراه
بأس تو قد فاحمرت لواظظه ونائل شب فاخضرت عذاراه
فلعمري لقد بسطت من نفسه، وأعدت عليه بعض أنسه، على أنى
وقعت فيما وقع فيه الكل لقولى البيت كالبيت.

وأمر إثر ذلك أبا بكر فغنى:

ولما قضيناه من منى كل حاجة ولم يبق إلا أن تزم الركائب
فأيقنا أن هذا التطير، يعقبه التغير ^(١) .

وقد قدمت في أخبار الشاعر ابن اللبانة قوله في موشحته:

سطا وجاد رشيد بنى عباد فأنسى الناس رشيد بنى العباس

ونقل صاحب النفح عن الذخيرة لابن بسام:

أخبرني الحكيم النديم المطرب أبو بكر بن الإشبيلي، قال: حضرت
مجلس الرشيد بن المعتمد بن عباد وعنده الوزير أبو بكر بن عمار، فلما دارت
الكأس وتمكن الأنس وغنيت أصواتاً ذهب الطرب بابن عمار كل مذهب
فارتجل يخاطب الرشيد:

ما ضر أن قيل إسحاق وموصله ^(١) ها أنت أنت وذى حمص وإسحاق ^(٢)
أنت الرشيد فدع من قد سمعت به وإن تشابه أخلاق وأعراق
لله درك داركها مشعشة واحضر بساقيك ما دامت بنا ساق
وقد تقدمت في سيرة المعتمد أبيات الرشيد التي أولها:

يا حليف الندي ورب السماح وحبيب النفوس والأرواح

(٨) نفح الطيب ج ٥ ص ٢٣٤

(٩) يعنى إسحاق الموصل المغنى المعروف فى عهد الرشيد العباسى .

(١٠) إشبيلية سماها عرب الأندلس: حمص

المأمون بن المعتد

اسمه عباد ويكنى أبا الفتح وأبا نصر أيضاً

يقول المراكشي: هو أكبر أولاده، ولد له في حياة أبيه المعتضد وسماه عباداً.

ولاه أبوه قرطبة حينما استولى عليها ثانية سنة ٤٧١هـ ولقبه المأمون وبقي أميراً عليها إلى أن دهمت الدولة العبادية بغارات المثلثين سنة ٤٨٤هـ فقاتل المأمون حتى قتل في صفر من هذه السنة.

وقد استكتب أيام إمارته بعض كتاب الأندلس، منهم أبو الوليد المصيصي الشاعر^(١) ويقول الفتح بن خاقان في قلائد العقيان:

"ولما بدت الفتنة وسال سيلها، وانسحب على بهجة الهدنة ذيلها، نازل المرباطون قرطبة وفيها ابنه المأمون، وكان أشهر ملوك زمانه خيراً، وأيمنهم طيراً، ما اشتغل بمعاطاة المدامة، ولا توغل للعصيان شعب ندامة، فأقاموا عليها شهوراً، وأرخو من محاصرتها والتضييق عليها ستوراً، يساورونها مساورة الأراقم، وبياكرونها بداء من الحصار فاقم، والمأمون قد أوجس في نفسه خيفة، وتوقع منهم داهية مطيفة، فنقل ماله وأهله إلى المدور بعد أن حصنه، وملاه بالعدد وشحنه، وأقام بقصر قرطبة مضطرباً، ولأول نبأ مرتقباً، إلى أن صبحوه يوماً لعدة كانت بينهم وبين أهلها في تسم أسوارها، وتفتح أنجادها وأغوارها " إلى أن يقول:

" فلما أحس بهم المأمون خرج بعدد قليل وخذ قليل .. فقطع رأسه

(١) المغرب ج ١ ص ٣٨٥.

وحيز، وخيض به النهر وأجيز، ولما استقر بالمحلة رفع على سن رمح وطيف به فى جوانبها، وأخيف به قلب مجانبها".

وللمعتمد فى رثاء المأمون هذا وأخيه الراضى الذى ذكرناه قبلا قصيدة باكية من أبلغ شعر الأحزان الذى أنشأه المعتمد فى نكبته.

قال الفتح بن خاقان فى القلائد:

"وفى ذلك يقول المعتمد يرصيهما، وقد رأى قمرية بائحة بشجنها نائحة بفننها على سكنها، وأماها وكر فيه طائران يرددان نغماً ويغردان ترحة وترنماً:

بكت أن رأت إلفين ضمهما وكر	مساء وقد أخنى على إلفها الدهر
وناحت فباحث واستراحت بسرها	وما نطقت حرفاً يباح به سر
فمالى لا أبكى؟ أم القلب صخرة؟	وكم صخرة فى الأرض يجرى بها نهر
بكت واحداً لم يشجها غير فقدته	وأبكى لآلاف عديدهم كثر
بنى صغير، أو حبيب موافق	يمزق ذا قفر، ويغرق ذا بحر
ونجمان زين للزمان احتواهما	بقرطبة النكداء أو رندة القبر
غدرت إذن، إن ضن جفنى بقطرة	وإن لومت نفسى فصاحبها الصبر ^(١)
فقل للنجوم الزهر تبكيهما معى	مثلهما فلتحزن الأنجم الزهر

وللأمير المرزأ فى رثاء المأمون والراضى أبيات أخرى أشار فيها إلى ابنه أبى عمرو. وهو الظاهر الذى يأتى ذكره، وقد تقدم أن الظافر قتل فى دولة المعتمد، فشغل عن رثائه بطلب ثأره، وأما المأمون والراضى فقتلتهما

(١) يعنى أن الصبر لا يليق به فلا يصاحبه الصبر إلا وقد لومت نفسه.

المرابطون، الأول فى قرطبة ثم الثانى فى رندة، وقد أخذوا قرطبة قبل إشبيلية
ورندة بعدها.

وهذه الأبيات:

يقولون صبر لا سبيل إلى الصبر	سأبكى وأبكى ما تطاول من عمرى
ترى زهرها فى مآتم كل ليلة	يخمشن لهفًا وسطه صفحة البدر
ينحن على نجمين أكلن ذا وذا	ويا صبر ما للقلب فى الصبر من عذر
مدى الدهر فليبك الغمام مصابه	بصنويه يعذر فى البكاء مدى الدهر
بعين سحاب واكف قطر دمعها	على كل قبر حل فيه أخو القطر
وبرق ذكى النار حتى كأنما	يسعر مما فى فؤادى من الجمر
هوى الكوكبان الفتح ثم شقيقه	يزيد فهل بعد الكواكب من صبر ^(١)
أفتح لقد فتحت لى باب رحمة	كما بيزيد الله قد زاد فى أجرى
هوى بكما المقدار عنى ولم أمت	وأدعى وفيًا؟ قد نكصت إلى الغدر
توليتما والسن بعد صغيرة	ولم تلبث الأيام أن صغرت قدرى
فلو عدتما لاخترتما العود فى الثرى	إذ أنتما أبصرتمانى فى الأسر
بعيد على سمعى الحديد نشيده	ثقیلاً فتبكى العين بالحس والنقر
معى الأخوات الهالكات عليكما	وأمكما الثكلى المضرمة الصدر
فتبكى بدمع ليس للقطر مثله	ويزجرها التقوى فتصغى إلى الجزر

(١) الفتح هو المأمون - ويزيد هو الراضى.

أبا خالد أورثنى البث خالداً أبا النصر مذ ودعت ودعنى نصرى^(١)
وقلبكما ما أودع القلب حسرة تجدد طول الدهر ثكل أبى عمرو^(٢)
وللمعتمد فى رثائهما قصيدة أخرى فى الديوان أولها:

يا غيم عينى أقوى منك تهتانا أبكى لحزنى وما حملت أحزانا
ونار برقك تخبو إثر وقدها ونار قلبى تبقى الدهر بركانا
نار وماء صميم القلب أصلهما متى حوى القلب نيزانا وطوفانا

الظافر بن المعتمد

فى كتاب المغرب ترجمة أبى الوليد محمد بن جمهور:

"وجاء المأمون بن ذى النون محاصراً لقرطبة من طليطلة، فاستغاثا (ابنا
أبى الوليد) بالمعتمد بن عباد، فوجه لهم ابنه الظاهر بعسكر، فأقلع المأمون
عنهم، فغدرهم الظاهر وأخذ قرطبة منهم، وحملهم إلى شلطيش فسجنوا
هناك، وأقام الظافر ملكاً على قرطبة إلى أن دخل عليه بالليل حريز بن
عكاشة فقتله، وصارت قرطبة للمأمون بن ذى النون".

وكان عكاشة هذا من أنصار ابن ذى النون، وكان استيلاء المعتمد على
قرطبة المرة الأولى سنة ٦٦١هـ، ثم استولى عليها مرة أخرى سنة ٦٧١هـ
ولى عليها ابنه الراضى كما تقدم.

وإليك أسجاعاً سجع بها الفتح فى قلائد العقيان فى تولى الظافر قرطبة
وقتله:

(١) أبو خالد الراضى وأبو النصر المأمون.

(٢) أبو عمر هو الظافر.

"ولما انتظمت فى سلكه (انتظمت قرطبة فى سلك المعتمد) واتسمت بملكه أعطى ابنه الظافر زمامها، وولاه نقضها وإبرامها، فأفاض فيها نداءه، وزاد على أمدده وقده، وجملها بكثرة حبائه، واشتغل بأعبائها عن فئاته^(١) ولم يزل فيها آمراً وناهياً، غافلاً عن المكر ساهياً، حسن ظن بأهلها اعتقده، واغتراراً بهم ما رواه ولا انتقده، وهيهات كم من ملك كفنوه بدائه، ودفنوه بذمائه، وكم من عرش ثلوه، وعزيز أذلوه، إلى أن ثار فيها ابن عكاشة ليلاً، وجر إليها حرباً وويللاً، فبرز الظافر منفرداً من كماته، عياً عن حماته، وسيفه فى يمينه، وهاديه فى الظلماء نور جبينه، فإن كان غلاماً كما بلله الشباب بأندائه، وألحفه الحسن بردائه، فدافعهم أكثر ليلة، وقد منع منه تلاحق رجله وخيله، حتى أمكنهم من عثرة لم يقل لها لعا، ولا استقل منها ولا سعى".

إلى أن يقول:

"ولما كان من الغد حز رأسه ورفع على سن رمح وهو يشرق كنار على علم، ويرشق نفس كل ناظر بالم، فلما رمقته الأبصار وتحققته الحماة والأنصار، رموا أسلحتهم، وسووا للفرار أجنحتهم فممنهم من اختار فراره وجلاه، ومنهم من أتت به إلى حينه رجلاه".

ويقول الفتح إن المعتمد شغل عن رثاء ابنه الظافر بطلب ثأره، إلا إشارة إليه فى تأبين أخويه الراضى والمأمون، وتقدمت هذه المراثية.

(١) كذا فى القلائد، وأحسب الجملة محرفة
وصوابها: واستقل بأعبائها على فئاته والفتاء الشباب.

عبد الجبار بن المعتمد

وللمعتمد ابن اسمه عبد الجبار ثار على المرابطين وتمنى أن يعيد سلطان بنى عباد، فحالت المنية دون الأمنية.

امتنع عبد الجبار فى حصن أركش، وهو حصن منيع قريب من إشبيلية، فسار إليه قائد المرابطين سير بن أبى بكر، فرابطت جيوشه عند الحصن شهوراً حتى أصاب عبد الجبار سهم أصمائه، وبقي أهله وأنصاره ممتنعين بمعقلهم حتى أجهدهم الجوع فنزلوا على حكم المرابطين، يقول الفتح بن خاقان.

«فوصلوا إلى قبة الملمات، وحصلوا فى غصة الملمات، فوسمهم الحيف، وتقسمهم السيف».

وقدمت فى أخبار المعتمد أن ثورة ابنه هذه أرابت المرابطين فيه فضيقوا عليه وأرهقوه بالأغلال والقيود، وبينت وقع هذه الثورة على المعتمد ألماً وأملاً.

يقول الفتح:

ولما زار الشبه خيف سورة الأسد ولم يرج صلاح الكل والبعض قد فسد، فاعتقل المعتمد خلال تلك الحال وأثناءها، وأحل ساحة الخطوب وفناءها، وحين أركبوه أسوداً وأورثوه حزناً بات له معاوداً، قال:

غنتك أغماتيه الألحان ثقلت على الأرواح والأبدان

وقد أثبت الأبيات فى الكلام على محنة المعتمد.

وفى المغرب فى الكلام على أركش.

"من معاقل الأندلس المنيعة المستورة، وقد ثار فيها ولد المعتمد بن عباد فأذاق إشبيلية شراً حتى قتل بسهم".

ولا أدري ما الشر الذى ذاقتة إشبيلية من ثورة ابن المعتمد بعد انقضاء دولة بنى عباد، واعتقال ملكها فى أغمات، لعل ثورة عبد الجبار أرابت المرابطين بأهل إشبيلية فضيقوا عليهم، كما فعلوا بالمعتد نفسه حين ثار ابنه.

المعتد بن المعتمد

يأتى ذكر المعتد فى نتف متفرقة، ذكر فى أبيات نظمها أبو بكر الإشبيلي فى مجلس الرشيد بن المعتمد، وقد أثبتها فى الكلام على الرشيد.

وهذا البيت الذى ذكر فيه المعتد:

البيت كالبيت لكن زاد ذا شرفاً - أن الرشيد مع المعتد ركناه

وذكر كذلك فى أخبار أخيه الراضى أمير رندة، حينما أمره أبوه بالخروج إلى عدوه فتلكأ، فوجه المعتمد جيشاً يقوده ابنه المعتد.

وفى كتاب المقرئ فى الكلام على مدينة شلب:

"قد تقدم أن المعتمد بن عباد نشأ فيها وولاه أبوه المعتضد مملكته، ولما استقل المعتمد بإشبيلية ولى على شلب ابنه المعتد".

وهذا يدل على أنه من كباء أبناء المعتمد إذا كان أهلاً لولاية شلب حين تولى أبوه الملك.

وتقدم أن المعتمد حين أحيط به فى إشبيلية كتب إلى ابنه الراضى

والمعتد ليستسلما للمرابطين، وكان المعتد فى حصن مارتلة، فلم يسعه هو وأهوه إلا النزول على حكم أبويهما إشفافاً عليهما وعلى أهليهما.

والمراكشى الذى ذكر كتابة المعتمد إلى ابنه المعتد أن يستسلم للمرابطين، يقول إن المرابطين أخذوا كل ماله ولم يذكر أنهم قتلوه كما قتلوا أخاه الراضى.

أبو هاشم

قدمت أن المعتمد تذكر وقد اشتد البأس وحمى الوطيس يوم الزلافة
طفلاص له اسم أبو هاشم فأنشد بيتين:

أبا هاشم هشمتى الشفار فله صبرى لذاك الأورار
ذكرت شخيصةك تحت العجاج فلم يثنى ذكره للفرار
وقدمت كذلك أن ابنه أبا هاشم دخل عليه وقد ثقلت القيود برجليه
فأنشأ أبيات من الحسرات والزفرات:

قيدى أما تعلمنى مسلماً أبيت أن تشفق أو ترحمما
دمى شراب لك واللحم قد أكلته لا تهشم الأعظمما
يصرنى فيك أبو هاشم فيثنى والقلب قد تهشما
ارحم طفيلًا طائشاً لبه لم يخش أن يأتيك مسترحمما
... إلى آخر الأبيات

شرف الدولة وفخر الدولة

ذكرهما ابن اللبانة الشاعر في أحاديثه عن بؤس المعتمد وشقائه، حديث أنه زار المعتمد في أغمات، فلما أزمع الرحيل أرسل إليه المعتمد هدية مع ولده شرف الدولة، وقال ابن اللبانة:

"وهذا من بنيه أحسن الناس سمًا، وأكثرهم صمتًا، تخجله اللفظة، وتجرحه اللحظة، حريص على طلب الأدب، مسارع في اقتناء الكتب، مثابر على نسخ الدواوين، مفتاح فيها من خطه زهر الرياحين".

وفخر الدولة الذي رآه الشاعر في دكان صائغ ينفخ في الفحم فتقطع قلبه كمدًا وصعدت نفسه زفرًا في الأبيات التي قدمتها في فصل "المعتمد في أغمات" ومنها:

للفخ في الصور هول ما حكاه سوى هول رأيتك فيه تنفخ الفحما
وددت إذ نظرت عيني إليك به لو أن عيني تشكو قبل ذاك عمى

بثينة بنت المعتمد

قال صاحب نفح الطيب وهو يذكر أديبات الأندلس:

"ومنهن بثينة بنت المعتمد بن عباد، وأمها الرميكية السابقة".

وكانت بثينة هذه نحوًا في أمها في الجمال والنادرة ونظم الشعر، ولما أحيط بأبيها ووقع النهب في قصره كانت في جملة من سبي، ولم يزل المعتمد والرميكية عليها في وله دائم لا يعلمان ما آل إليه أمرها إلى أن كتبت إليهما بالشعر المشهرو المتداول بين الناس بالمغرب.

وكان أحد تجار إشبيلية اشتراها على أنها جارية سرية ووهبها لابنه،
فنظر من شأنها وهيئت له، فلما أراد الدخول بها امتنعت وأظهرت نسبها
وقالت: لا أحل لك إلا بعقد نكاح إن رضى أبى بذلك، وأشارت عليهم
بتوجيه كتاب من قبلها لأبيها وانتظار جوابه، فكان الذى كتبته بخطها من
نظمها ما صورته:

اسمع كلامى واستمع لمقاتلى	فهى السلوك بدت من الأجياد
لا تنكروا أنى سبيت وأنى	بنت لملك من بنى عياد
ملك عظيم قد تولى عصره	وكذا الزمان يؤول للإفساد
لما أراد الله فرقة شملنا	وأذاقنا طعم الأسى من زاد
قام النفاق على أبى فى ملكه	فدنا الفراق ولم يكن بمراد
فخرجت هاربة فحازنى امرؤ	لم يأت فى أفعاله بسداد
إذ باعنى بيع العبيد فضمنى	من صاننى إلا من الإنكاد
وأرادنى لنكاح نجل طاهر	حسن الخلاق من بنى الأنجاد
ومضى إليك يسوم رأيك فى الرضا	ولأنت تنظر فى طريق رشادى
فعساك يا أبتى تعرفنى به	إن كان ممن يرتجى لوداد
وعسى رميكية الملوك بفضلها	تدعو لنا بالخير والإسعاد

فلما وصل شعرها لأبيها وهو بأغमत واقع فى شراك الكروب
والأزمات، سر هو وأمها بحياتها ورأيا أن ذلك للنفس من أحسن أمنياتها، إذ
علما مآل أمرها وجبر كسرهما، إذ ذاك أخف الضررين وإن كان الكرب قد

ستر القلب منه حجاب زين ، وأشهد على نفسه بعقد نكاحها من الصبي
المذكور وكتب إليها أثناء كتابه ما يدل على حسن صبره المذكور:

بنيتى كـونى به برة فقد قضى الدهر بأسعاد

أولاد آخرون

وقدما أن بنات المعتمد دخلن عليه يوم عيد فى أغمات وهن فى أطمار
يكسوهن الشحوب والاكتئاب والذل والحزن ، فأنشأ بياته التى أولها:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً فساءك العيد فى أغمات مأسوراً
ترى بناتك فى الأطمار جائعة يغزلن للناس ما يملكن قطميراً
فقد كان له وهو فى معتقله بنات كبار يغزلن للناس .

ويقول المعتمد فى الأبيات التى أنشأها حين دخل عليه ابنه أبو هاشم
وهو مغلول مكبل ، يقول لقيده:

ارحم طفلاً طائشاً لبه لم يخش أن يأتيك مسترحماً
وارحم أخيات له مثله جرعتهن السم والعلقما
منهن من يفهم شيئاً فقد خفنا عليه للبكاء العمى
والغير لا يفهم شيئاً فما يفتح إلا لرضاع فما
فهذا يدل على أنه كان له أيام المحنة أطفال ترعرعوا وأطفال لا يزالون
رضعاً .

وفاة المعتمد على الله وقبره

قال الفتح بن خاقان فى قلائد العقيان :

" ولم تزل كبده تتوقد بالزفرات وخلده يتردد بين النكبات والعثرات
ونفسه تنقسم بالأشجان والحسرات إلى أن شفته منيته وجاءته بها أمنيته ، فدفن
بأغمات وأريح من تلك الأزمات .

وعطلت المآثر من حلالها وأفرزت المفاخر من علاها
ورفعت مكارم الأخلاق وكسدت نفائس الأعلاق ، وصار أمة عبرة فى
عصره وصاب أندى عبره فى مصره .

وبعد أيام وافاه أبو بكر بن عبد الصمد شاعره المتصل به المتوصل إلى
المنى بسببه ، فلما كان يوم العيد وانتشر الناس ضحى وظهر كل متوار وضحى
قام على قبره عند انفصالهم من مصلاهم واختيالهم بزيتهم وحلاهم ، وقال
بعد أن طاف بقبره والتزمه وخر على تربه ولثمه :

ملك الملوك أسامع فأنادى	أم قد عدتك عن السماع عواد
لما خلت منك القصور ولم تكن	فيها كما قد كنت فى الأعياد
أقبلت فى هذا الثرى لك خاضعاً	وجعلت قبرك موضع الإنشاد
قد كنت أحسب أن تبدد أدمعى	نيران حزن أضمرت بفؤادى
فإذا بدمعى كله أجريته	زادت على حرارة الأكباد
فالعين فى التسكاب والتهتان	والأحشاء فى الإحراق والإيقاد
يا أيها القمر المنير أهكذا	يمحى ضياء النير الوقاد

أفقدت عيني مذ فقدت إنارة
ما كان ظني قبل قبرك أن أرى
الهضبة الشماء تحت ضريحه
عهدي بملكى وهو طلق ضاحك
والمال ذو شمل بداد والندى
أيام تخفق فوقك الرايات فوق ك
والأمر أمرك والزمان مبشر
والخيل ترح والفوارس تنحنى
وهي قصيدة أطل إنشادها وبنى بها اللواعج وشادها. فانحشر الناس
إليه وأحفلوا وبكوا لبكائه وأعولوا وأقاموا أكثر نهارهم مطيفين به طواف
الحجيج مديمين البكاء والعجيج.

ثم انصرفوا وقد نزفوا ماء عيونهم وأقرحوا مآقيهم بفيض شئونهم.
وهذه نهاية كل عيش وغاية كل ملك وجيش. والأيام لا تدع حيا ولا تألو
كل نشر طيا تطرق رزاياها كل سمع وتفرق مناياها كل جمع. وتصمى كل
ذى أمر ونهى وترمى كل مشيد بوهى. ومن قبله طوت النعمان بن الشقيقة
ولوت مجازها فى تلك الحقيقة».

وقال مؤلف نفح الطيب :

«قال غير واحد: من النادر الغريب أنه نودى على جنازته: «الصلاة على الغريب» بعد عظم سلطانه وسعة أوطانه وكثرة صقالبه وحبشانه وعظم أمره وشانه. واجتمع عند قبره جماعة من الأقوام الذين لهم فى الأدب حصة ولقضية المعتمد فى صدورهم غصة... إلخ».

وخاتمة هذه الحوادث الدامية وتلك القصة الباكية أوصى المعتمد أن تكتب على قبره:

قبر الغريب سقاك الراح الغادى	حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت	بالخصب إن أجدبوا بالرى للصادى
بالطاعن الضارب الرامى إذا اقتتلوا	بالموت أحمد بالضرغامه العادى
بالدهر فى نغم بالبحر فى نعم	بالبدر فى ظلم بالصدر فى النادى
نعم هو الحق حابانى به قدر	من السماء فوافانى لميعاد
ولم أكن قبل ذلك النعش أعلمه	أن الجبال تهادى فوق أعواد
كفاك فارفق بما استودعت من كرم	رواك كل قطوب البرق وعاد
يبكى أخوا الذى غيبت وابله	تحت الصفيح بدمع رائح غادى
حتى يجودك دمع الطل منهمراً	من أعين الزهر لم بخل بإسعاد
ولا تزال صلاة الله دائمة	على دفينك لا تحصى بتعداد

قصة المعتمد مأساة لا تحتاج إلى افتنان ناثر، وقصيدة حزينة لا تفتقر إلى مبالغة شاعر.

ولا ريب أنها سارت في أهل عصره وسرت إلى العصور من بعده. ويبقى قبر مزار الأدباء ومقصد العلماء.

ويقول المقرئ بعد ذكر أخبار المعتمد:

«وقد جمع بنا القلم في ترجمة المعتمد بن عباد بعض جموح وما ذلك إلا لما علمنا أن نفوس الأدباء إلى أخباره رحمه الله تعالى شديدة الطموح. وقد جعل الله تعالى له كما قال أمين الأبار في الحلة السراء رقة في القلوب وخصوصاً بالمغرب. فإن أخباره وأخبار الرميكية إلى الآن متداولة بينهم. وإن فيها لأعظم عبرة. رحم الله الجميع»^(١).

فهذا لسان الدين بن الخطيب وزير الأندلس وعالمها وأديبها الذي ألف المقرئ كتابه الواسع لتاريخ الأندلس ولسيرته فسماه نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب - وناهيك بهذا نباهة شأن وعظم مكانة.

لسان الدين هذا يزور قبر المعتمد بعد ٢٧٣ سنة من وفاته وينشد عنه شعراً.

قال لسان الدين بن الخطيب^(٢):

«وقفت على قبر المعتمد بن عباد بمدينة أغمات في حركة راحة أعملتها إلى الجهات المراكشية باعثها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار سنة ٧٦١هـ. وهو

(١) نفح الطيب ج٦ ص ١.

(٢) نفح الطيب ج٥ ص ٢٣٧.

بمقبرة أغمات فى نشز من الأرض وقد حفت به سدره وإلى جانبه قبر اعتماد
حظيته مولاة رميك . وعليهما هيئة التغرب ومعاناة الخمول من بعد الملك . فلا
تملك العين دمعها عند رؤيتهما . فأنشدت فى الحال :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات	رأيت ذلك من أولى المهمات
لم لا أزورك يا أندى الملوك يداً	ويا سراج الليالى المدلهـمات
وأنت من لو تخطى الدهر مصرعه	إلى حياتى لجادت فيه أبياتى
أناف قبرك فى هضب يميزه	فتتحيه حفيات التحيات
كرمت حيا وميتا واشتهرت علا	فأنت سلطان أحياء وأموات
ما رئى مثلك فى ماض ، ومعتقدى	ألا يرى الدهر فى حال وفى آت

ويتبع صاحب نفع الطيب هذا الخبر بقوله :

وقد زرت أنا قبر المعتمد بمدينة أغمات سنة ١٠١٠ هـ . ورأيت فيه مثل
ما ذكره لسان الدين رحمه الله تعالى . فسبحان من لا يبيد ملكه لا إله إلا
هو .

فهذا عالم مؤرخ يزور قبر المعتمد صارت سنة الأدباء والعلماء منذ مات
فى القرن الخامس الهجرى إلى عصر المقرئ القرن الحادى عشر . ولعلها
استمرت من بعض عصوراً أخرى .

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com



الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة

ت: ٢٥٩٢٢٦٢٠ - ٢٥٩٢٨٤١١

فاكس: ٢٥٩٢٦٢٧٧ ص.ب: ٢١ توزيع الظاهر

E-mail: alsakafa_alDinaya@hotmail.com